



12.9.2015 >

جورج أمارو

مِثْنَانِ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ

رِوَايَةٌ

ترجمة: عبد الحاسن المرزوقي

تقديم: سوفي الفيزي

الطبعة السادسة

الرواية التي تُرجمت إلى 50 لغة في العالم

مسكنة

جورج أمادو

مبتثان لرجل واحد

رواية

ترجمها عن البرتغالية

عبد الجليل العربي

راجع النصّ العربيّ وهذّبه

شوقي العنيزي

مسكيلياني للنشر

ألفراء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

مِثْنَان لرجل واحد

المؤلف: جورج أمادو
عنوان الكتاب : مهيتان لرجل واحد
ترجمة: عبد الجليل العربي
مراجعة: شوقي العنيزي
تقديم: شوقي العنيزي
خط الفلاف: الفنان سمير قويمة
تصميم الفلاف: الفنان رؤوف العرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلا ترا تونس - تونس العاصمة
الهاتف: 22997848 (+216) نو 531531622 (+966)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 5-22-833-9973-978
الطبعة السادسة: 2015

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

إلى «زليبا»، في منحدر السفن.

إلى ذكرى «كارلوس بينا فيليو»، أستاذًا في الشعر وفي الحياة، هدير ماء على طاولة الحانة، وعلى طاولة البوكر قائدًا رقيقًا، أهدي هذه الحكاية، وهو يخوض اليوم في البحار المجهولة بجناحيه الملائكتين، الحكاية التي وعدته بأن أقصّها لأجله ذات يوم.

إلى «لايس»، و«روي أنطونيس»، ففي منزلهما الأخوي في «برنمبوكانا»، ترعرع «كينكاس»، وصخبه على دفء الصداقة الحميم.

(على كل فرد أن يعتني بـدفن نفسه، فلا وجود لمستحيل.)

(كلمة الوداع لـ«كينكاس هدير الماء»

حسب رواية «كيتاريا» آخر من كان إلى جانبه)

I

إلى حدّ هذا اليوم، والغموض يلفّ حكاية موت «كينكاس هدير الماء». شكوك كثيرة ما تزال تنتظر تفسيراً، تفاصيل سخيّة، وتضارب في أقوال الشهود، وثغرات متعددة في الحكاية ما تزال كلّها في حاجة إلى تفسير. لا شيء يبدو واضحاً لا الزمان ولا المكان ولا الكلمات الأخيرة التي قال. فالعائلة المدعومة من الجيران والمعارف، دافعت بلا هوادة عن رواية الموت الصباحي الهادئ، بلا شهود ولا أبهة ولا كلمات وداع، قبل عشرين ساعة تقريباً من ذلك الموت الآخر، الذي شاع وانتشر، فَبِيلُ الفجر، عندما كان القمر يلفظ آخر ذرّات النور على البحر، والعجائب تنهياً لتأخذ مكانها على ضفاف مرسى «باهيا»... حينها، وبحضور شهود طبيي السمعة، قال كلماته الأخيرة التي تنقّلت بصفة واسعة من لسان إلى آخر، على السفوح والمنحدرات المشبوهة، وكانت، حسب رأي أولئك الناس، أكثر من مجرد وداع للعالم، بل شهادة نبوية ورسالة عميقة المغزى، كتلك التي يصوغها أحد كتّابنا الشبّان المعاصرين.

وعلى الرغم من وفرة عدد الشهود الثقات، من أمثال «الكابتن مانويل» و«كينتاريا» جاحظة العينين، صاحبة الكلمة الصادقة، فَنَمَتَ من نفى جملة وتفصيلاً آية صَحّة في الرواية، لا فقط في ما تعلّق بالكلمات الأخيرة التي اشتهرت بين الناس، بل بكلّ ما ارتبط كذلك بأحداث تلك الليلة العاصفة، حين ظهر «كينكاس هدير الماء» على خليج «باهيا»، في توقّيت مشبوه، وفي ظروف غامضة، وغطس في البحر مسافراً سفرته الأخيرة بلا رجعة وإلى الأبد.

هكذا هي الدنيا، عالم مليء بالمشككين، الراضين، مثلما هو مليء بالناس البسطاء المشدودين إلى النظام والقانون وقواعد السلوك، والوثائق المختومة، كثور يقود عربة. لذلك فقد صدّق هؤلاء، في إحساس بالنصر، شهادة الوفاة الموقّعة من طرف الطبيب عند منتصف النهار تقريباً، ولم يشكّوا في مضمونها، لا شيء إلا لأنها كانت مختومة على قصاصة مرقونة من الورق، على الرغم من تغافلها عن ذكر الساعات الأخيرة التي عاشها كينكاس باندفاع حتّى رحيله، عن طواعية وعن طيب خاطر، حسب ما صرّح به هو نفسه بصوت عال على مسمع أصدقائه وآخرين كانوا حاضرين.

عائلة الميت: ابنته المحترمة وصهره المستاء، الموظف الحكومي صاحب السجل الواعد؛ والعمّة «ماروكاس» وأخوه الأصغر، التاجر صاحب الرصيد المتواضع في البنك، أكّدت بشدّة أنّ الحكاية كلّها ليست سوى أكذوبة كبرى اخترعها السكاري الملاعين والأوغاد الخارجون عن القانون وعن المجتمع، أولئك الأنذال الذين ينبغي أن يكون مكانهم الحقيقي خلف قضبان السجن، لا الركض في الشوارع بحريّة، والسير على رمال الشواطئ الذهبية قرب مرفأ «باهيا»، وبدلاً من الاستمتاع بالسمر الليلي في المناسبات المتعدّدة، دفنوا أنفسهم في حماة الفجور، بتسهيل من «ملك الليل» صديقهم «كينكاس هدير الماء» الذي كان قدوة هؤلاء المرضى.

من الظلم تحميل أولئك الأصدقاء كامل المسؤولية عن الحياة المشؤومة التي عاشها «كينكاس» في السنوات الأخيرة، حتّى صار منبوذاً داخل العائلة ومصدراً عاراً في نظرها، فلم يكن أحد يجرؤ على التلقظ باسمه أو الحديث عن أفعاله في حضور الأطفال الأبرياء، في حين كان ربّ العائلة «جواكيم»¹ صاحب الذكرى الخالدة، حسنَ

(1) «جواكيم»: هو «كينكاس» نفسه قبل أن يسقط في حياة المجون. (المترجم).

السيرة، مُحْتَشِمُ السلوك، محاطا باحترام الجميع وتقديرهم، إلى أن اعتبرته العائلة ميتا. وهذا ما يقودنا إلى ملاحظة مفادها أن موتا أول قد وقع منذ سنوات بعيدة، وإن لم يكن جسديا، فهو موت أخلاقي على الأقل، وهكذا كان الحاصل ثلاث ميتات جعلت من «كينكاس» مُحْطَمَ الأرقام القياسية في الموت، وبطلا فذا في عدد الوفيات، بينما لم يمت «جواكيم» سوى مرة واحدة منذ عشر سنوات حين هجر المنزل وانضم إلى عشرة السوء. وهذا ما يعطينا الحق في أن نعتقد أن تلك الأحداث التي وقعت بعد ذلك، بدءا من شهادة الوفاة وصولا إلى الغطس في البحر، ليست سوى مسرحية هزلية كان هو نفسه المخطط لها قصد إذلال أقاربه مرة أخرى، وتمكير صفو حياتهم، وتلطيفهم بالعار، وجعلهم مضغة على ألسنة الناس في الشوارع، إذ لم يكن جديرا بالاحترام ولا يستحق حتى المجاملة الكاذبة، على الرغم من الاحترام الذي يكنّه الأصدقاء المقامرون، للآعب المحظوظ، شرب «الكشاسا»¹ الذي يقضي وقتا طويلا في الشرب والحديث.

في الحقيقة، لست أدري إن كان سرّ ميتة «كينكاس» هدير الماء هذه، أو سرّ ميتاته اللاحقة، سينكشف يوما ما للعيان، ولكنني لن أدخر جهدا في المحاولة، عملا بقول «كينكاس» المأثور: «المهم أن نحاول وإن كان في ذلك المستحيل».

(1) عَرَقَ برازيلي تقليدي يمدّ من أقدم المشروبات الكحولية وأشهرها وأكثرها استهلاكاً في تاريخ البرازيل. (المترجم).

II

حسب رأي العائلة، فإنّ الأوغاد الذين يتناقلون لحظات «كينكاس» الأخيرة في الشوارع والمنحدرات، وأمام السوق المركزية أو سوق «أغوا دوس مينينوس» حيث بيعت بطريقة واسعة ورقة صغيرة تضمّنت أبياتا من الشعر الركيك ارتجلها الشاعر «كويكا دو سانتو أمارو» إحياءً لذكرى الفقيد، لم يحترموا بسلوكهم ذاك، روح الميت. ومن المعلوم أنّ روح الميت، شيء مقدّس لا يجوز أن تلوكه ألسنة شاربي «الكشاسا» الوسخة أو أن يكون مضغّة في أفواه المقامرّين ومُهرّبي الماريجوانا. ولا يجوز أن نحولها إلى أغنية موزونة خالية من كلّ إبداع، يردّها الفنّانون الشعبيّون على مدخل «أليفادور لاسيردا» حيث يمرّ يوميّا عدد من أفاضل الناس، من بينهم زملاء صهره الذليل «ليوناردو براتو». حين يموت الإنسان، يحظى أليّا باحترام النّاس، مهما كانت الحماقات التي ارتكبها في حياته، فالمت يمحو بيد الغياب شوائب الماضي، فتشرق ذكرى الراحل العزيز منزّهة عن الخطايا كإشراقة الماس.

تلك هي نظرية العائلة التي كانت تحظى بإعجاب الجيران والأصدقاء. واعتمادا على النظرية نفسها أطلّ «كينكاس هدير الماء»، بعد موته، على هيئة «جواكيم سواريس دا كونيا»، ربّ العائلة الطيّب والموظف المثاليّ في دائرة الضرائب، بحذائه اللامع، وذقنه الحليق جيّدا، ومعطفه المصنوع من قماش القرمز، يتأبّط دوماً مُذكّرة صغيرة لتدوين المواعيد، ويصفي إليه جيرانه باحترام، حينما يحلو

له أن يعبر عن آرائه في الطقس أو في السياسة، «جواكيم» الذي لم ير قط في حانات «الكشاسا» الرخيصة، «جواكيم» الهادئ، والمحِب لبيته وأسرته.

في الحقيقة، وبفضل مجهود جدير بأعظم آيات المديح من طرف كل الحاضرين، استطاعت العائلة أن تجعل روح المرحوم وكأنها تشع منذ سنوات دون أن تشوبها شائبة واحدة حتى لحظة الإعلان عن موته للجميع. وكان الحديث عنه يجري في صيغة الماضي البعيد فقط، إذا ما أجبروا تحت أي ظرف من الظروف على الاستشهاد به. ولكن لسوء الحظ، كان الأمر يبدو مختلفا في بعض الأحيان، لا سيما حين يتعلق بأحد الجيران أو بأحد معارف «ليوناردو» وزملائه، أو بصديقة ثرثرة لـ«فندا» (ابنة «كينكاس» المفجوعة) أو بمن يعرفون «كينكاس» جيدا، بل حتى بمن سمعوا عنه من معارفهم. عندئذ فقط تقوم جثة الفقيد من القبر لتدنس الذاكرة وتلوح على حقيقتها: رجلا نرقا وصعلوكا تغمته السكر وقد عثر عليه ملقى تحت الشمس في وضوح النهار قرب منحدر السوق، وفوضويا وسخا، رب الثياب، متزهدا في لعبة الأوراق القذرة في باحة كنيسة «بيلار»، ومتسكما يلوك الأغاني السوقية بصوت أحن في منحدر «ساو ميغيل» مطوقا بذراعيه إحدى الزنجيات أو الخلاصات التعيسات. ولكم كان ذلك فظيعا!

حين وصل أخيرا في صبيحة ذلك اليوم المشهود بائع التماثيل الدينية مهموما إلى بيت عائلة «باريتو» الصغير والمرتب بعناية في «لاديرا دو طوباو»، وأعلم الابنة «فندا» والصهر «ليوناردو» بأن «كينكاس» قد رحل دون رجعة عن هذه الحياة ومات في غرفته البائسة، تنفس الزوجان الصعداء بعد العبء الكبير الذي كان جاثما عليهما معا.

فمن الآن وصاعدا لن تكون ذكرى الموظف المتقاعد بدائرة الضرائب مُزعجة ومُلطخة في الوحل بفعل السلوكات اللامبالية لهذا

المتشرد المنحرف في آخر حياته. لقد حان وقت الراحة المستحقة وصار بالإمكان الآن الحديث بكل حرية عن «جواكيم سواريس دا كونيا» والإشادة بحسن سيرته موظفًا وزوجًا وأبًا ومواطنًا صالحًا، صار مسموحًا تعداد فضائله للأطفال ليكون قدوة لهم ومثالًا أعلى، وبذلك يكبرون على التباهي بذكرى جدهم دون خوف من أي اضطراب.

انطلق بائع التماثيل الدينية الناسك العجوز ذو الجسد النحيل والشعر الأبيض كالصوف تمامًا، في رواية القصة بالتفصيل:

كان «كينكاس» في صباح ذلك اليوم على موعد مع زنجية تباع «المانفاو»¹ و«الأكاريجيه» و«الأبارا»² وغيرها من الأطياب اللذيذة، وقد وعدها بأن يحضر لها بعض الأعشاب النادرة الضرورية لشعائرها وفق طقوس «الكندمبلاي»³.

جاءت الزنجية لأخذ الأعشاب، بشكل مستعجل، من أجل إحياء الاحتفالات المقدسة لـ«شانفو»⁴ التي ستقام قريبًا. ومثلما جرت العادة، وجدت باب غرفته في أعلى السلم مفتوحًا، فقد أضاع «كينكاس» منذ مدة طويلة المفتاح الضخم الذي يعود إلى مائة سنة مضت. وفي الواقع يحكى أنه باع المفتاح في ليلة نحس على مائدة القمار إلى أحد السواح من هواة جمع الآثار، بعد أن نصب له الفخ بقصة خيالية عن تاريخ هذا المفتاح المبارك، وتفاصيل وصوله إليه أبا عن جد بوصفه مفتاحًا ضائعًا لإحدى الكنائس المقدسة.

نادته الزنجية، وحين لم تسمع جوابًا، ظفنت نائمًا ودفعت الباب، فرأته مبتسمًا وهو ملقى على سريرهِ البائس بشرشفه الأسود القذر،

(1) «المانفاو»: عسيبة من دقيق المانهوت. (المترجم).

(2) «الأكاريجيه»، و«الأبارا»: مأكولات تُعد أساسًا من مريسة الفاصوليا وبعض البهارات، وتُطبخ

بزيت التخليل. (المترجم).

(3) «الكندمبلاي»: طقوس العبادة الأفرو-برازيلية.

(4) «شانفو»: آلهة البروق والرعد في بعض المبادات الأفرو-برازيلية.

والغطاء الملقى عليه ممزق يكاد لا يسترُ حتى قدميه. كانت ابتسامته ابتسامة الترحيب الموهودة، فلم ترَ في هيئته ما يثير الريبة. سألتها عن الأعشاب التي وعدّها بها فظلّ مُبتسما دون ردّ. كان إبهام قدمه اليمنى يُطلّ من ثقب الجورب وحذاؤه الممزق مُلقى على الأرض. جلست الزنجية، وهي صديقة حميمة لـ«كينكاس»، ومعتادة على مزاحه ونكاته، على حافة السرير وأخبرته بأنها مستعجلة... تعجّبت لأنه لم يمدّ لها يده الماجنة المتعوّدة على الجسّ والقرص. فحدّقت مرّة أخرى في إبهام قدمه اليمنى الذي وجدته غريبا. ثمّ لمست جسد «كينكاس»، فنهضت وقد تملّكها الذعر، وحين أمسكت يده وجدتها باردة كالثلج. فنزلت السلالم بسرعة وأذاعت الخبر.

كانت الابنة والصهر يُصفيان، بلا إعجاب، إلى كلّ تلك التفاصيل.. الزنجية والأعشاب، والجسّ والقرص و«الكندمبلاي»، ولس الجثة. وكانا يُعربان عن رغبتهما في اختصار الحكاية بهزّ الرأس وكأنّهما يُكحّان عليه لكي ينتهي. ولكنّ بائع التماثيل رجل هادئ وصاحب موهبة في سرد القصص بأدقّ تفاصيلها. وهو الوحيد الذي كان يعرف أنّهما قريبا «كينكاس» حسب الاعترافات التي أدلى له بها هذا الأخير في إحدى الليالي أثناء حفلة سكر ومجون عامرة.. لذلك أتى إليهما بوجه تفمره ملامح التأثر والأسى ليقدم تعازي قلبه الملتاع.

حان موعد ذهاب «ليوناردو» إلى عمله، فقال لزوجته:

- ستذهبين أنت، أمّا أنا فسأتوجّه إلى المكتب، ولن أتأخّر في

الوصول. عليّ تسجيل الحضور. ثمّ سأشرح الموقف للمدير...

أذنّ الزوجان لبائع التماثيل الدينية بالدخول وقدّما له كرسيّا في الصالون. ذهبت «فندا» لتغيير ملابسها، فراح البائع المعجوز يقصّ على مسمع «ليوناردو» كلّ ما يعرفه عن «كينكاس». لا وجود في منحدر «طوباو» لشخص لا يحبّه. فلمّ سلّم نفسه إلى حياة التشرّد تلك، وهو

رجل من عائلة محترمه، ذات نفوذ؟ ذلك ما توصل إليه بائع التماثيل بعد أن كان له شرف تبادل الحديث مع ابنته و صهره. فهل حدث في البيت العائلي ما عكّر صفو حياته؟ هكذا كان الأمر ولا شك. ربّما خانت زوجته أو حملته ما لا يُطاق، فهذه الأمور كثيرا ما تقع. ثمّ وضع سبابته على صدغه حائرا وكأنّه يسأل نفسه: هل وضع إصبعه على الجرح؟

- حماتي «دونا أوتاسيليا»، كانت امرأة فاضلة، كانت قدّيسة!

ففرك بائع التماثيل ذقنه وتساءل ثانية:

- لماذا إذن؟

ولكن «ليوناردو» لم يجب، بل ذهب للردّ على «فندا» التي كانت تتاديه من غرفتها.

- هل علينا الإعلام...

-الإعلام؟ من؟ ولماذا؟

-العمة «ماروكاس» والعم «إدواردو»... والجيران. علينا أن ندعوهم

لحضور مراسم الدفن...

-لماذا نعلم الجيران على الفور؟ يمكننا إعلامهم بعد الدفن، وإلاّ

فإنّهم سيجدون الفرصة لثرائثهم الهائلة.

- ولكن العمة «ماروكاس»...

- سأتصل بها وب«إدواردو»... بعد الذهاب إلى المكتب. أسرعي وإلاّ

وصل هذا المعجوز قبلك هناك وأشاع الخبر في كلّ مكان...

- من كان يتصوّر... أن يموت هكذا دون أن يكون إلى جانبه أحد...

- ومن المذنب؟ إنّه هو نفسه، هذا المجنون...

في الصالون كان بائع التماثيل الدينيّة يتأمّل بإعجاب صورة ملوّنة

قديمة لـ«كينكاس»، عندما كان في الخامسة عشرة، كان شابا في أبهى

مظهر؛ بربطة عنق سوداء، وشوارب محفوفة، وشعر لامع وخدين ورديين. وإلى جانب هذه الصورة وفي إطار مُماثل كانت النظرة الثاقبة والقم الحازم، إنها «دونا أوتاسيليا» في فستان أسود، من تلك الفساتين المؤجرة.

تفحص بائع التماثيل ملامحها الصارمة:

- لا يبدو عليها أنها يمكن أن تخون زوجها... ولكنها تبدو، في المقابل، عظمًا صعب الكسر... أما خرافة المرأة القديسة. فلا أعتقد ذلك...

III

حين وصلت «فتدا» لم يكن هناك سوى عدد قليل من أهالي «منحدر السوق» يتفرسون في الجثمان بأعين دامعة. فتبهم بائع التماثيل الدينية بصوت خافت:

- هذه ابنته. وعنده كذلك صهر وأخ، وأخت. وجميعهم من الذوات. الصهر موظف ويسكن في «إيتا باجيب» في منزل فخم...

وابتعدوا قليلا ليتركوها تمرّ وكلهم فضول بأن يروها ترتدي على الجثمان، تعانقه، وتفرق في البكاء وربما تنفجر بالندح، بينما كان «كينكاس هدير الماء» ملقى على سرير الحفير، بينطاله البالي المسكون بالرقع، وقميصه الممزق، وكنزته الكبيرة القذرة، بيتسم وكأن كل ما يحدث ليس سوى مزحة تزيد في إمتاعه.

وقفت «فتدا» صامته بلا حراك تحديق في الوجه.. في الذقن غير الحليق.. في اليدين الوسختين.. وفي الإبهام الضخم وهو يطل من الجيوب المثقوب. لم يكن لديها مزيد من الدموع لتذرفها ولا تهتدات تملأ بها الغرفة، فقد بددت هذه الدموع بصورة خاسرة تماما حين حلق عقل «كينكاس» بعيدا وبدأ أعماله الجنونية رغم محاولاتها العديدة لتعيده إلى بيته المهجور. وها هي الآن تكتفي بمجرد النظر إليه ووجهها مليء بالإحراج.

كان ميتاً عديم اللياقة، لا يمكن مقارنته بأي ميت آخر، مجرد جثة لتشرّد مات مصادفة بلا احترام ولا وقار. وكان بيتسم في وجهها بوقاحة ساخرا منها ومن «ليوناردو» دون شك، ومن سائر أفراد

العائلة... جثة جديدة بأن تُلقى على المشرحة وتأخذ في سيارة الشرطة إلى طلبة كلية الطب لاستغلالها في الدروس التطبيقية قبل أن تُرمى في النهاية داخل حفرة تافهة بلا نعش ولا ضريح، ودون صليب ولا شهادة. كانت تلك جثة «كينكاس هدير الماء»، السكير، الفاسق، المقامر، المنشق عن العائلة والهائم على وجهه بلا ملاذ، وهكذا كانت مُلقاةً بلا أكاليل زهور ولا صلوات.

لم يكن ذلك «جواكيم سواريس دا كونيا» الموظف المستقيم في دائرة الضرائب الذي أُحيل على التقاعد بعد خمسة وعشرين عاما من التفاني في العمل والإخلاص له، والزوج النموذجي الذي كان الجميع يرفعون له القبعة تقديرا وإجلالا ويشدون على يديه. فكيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت وعادات حياة بأكملها؟ أن يهجر معارفه القدامى ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، متهافنا على المومسات، سائب اللحية متسخا يعيش في حظيرة وينام على فراش بائس؟ إلى هذه اللحظة لم تجد «فتدا» جوابا واحدا يقنعها بذلك.

لطالما كانت في الليالي الطويلة تُسرّ إلى زوجها بكل تلك الهواجس، ولا سيما بعد وفاة أمها «أوناسيليا»، وحتى في هذه المناسبة المهيبة لم يعد «كينكاس» إلى البيت لمؤازرة أهله. أهو جنون؟ لم يكن ذلك جنونا، أو على الأقل فإنه لم يكن الجنون الذي يتطلب وضعه في مستشفى الأمراض العقلية، وذلك ما أجمع عليه كل الأطباء. فكيف إذن يمكن تفسير مثل هذه التصرفات؟

أما الآن فقد انتهى كل شيء، انتهت كوابيس السنوات الماضية وانتهت لطخة العار في تاريخ العائلة.

لقد ورثت «فتدا» عن أمها خبرةً عمليةً عالية وسرعةً فائقةً في

اتخاذ القرارات وتنفيذها مباشرة. لذلك كانت تنظر إلى الميت، هذه الصورة الكاريكاتورية المزعجة التي تُدعى أباه، وتُفكر في الوقت ذاته في القرارات الواجب اتخاذها.

ينبغي، أولاً، استدعاء الطبيب الشرعي للحصول على شهادة الوفاة، ثم لفّ الجثمان في ملابس لائقة وأخذه إلى البيت ودفنه إلى جانب «أوتاسيليا»، في مأتم متواضع لا يكلف كثيراً، فالظروف صعبة هذه الأيام، ولكن عليها القيام باللازم لكي تتجنب الإحراج أمام الجيران والمعارف وزملاء «كينكاس». وعلى كل حال فالعمة «ماروكاس» والعمّ «إدواردو» سيعينانها على ذلك.

وفي الوقت ذاته وعيناهما مثبتتان على وجه «كينكاس» الضاحك، فكرت أيضاً في مصير تقاعد والدها. فهل سيرثونه أم سيحصلون فقط على جعالة شركة التأمين على الحياة؟ ربّما «ليوناردو» يعرف هذه الأمور..

والتفتت إلى الفضوليين الذين ما زالوا يحدّقون فيها، كانوا من بسطاء «طوباو»، من رواد الحانات الحفيرة، ومن حثالة الأوباش الذين كان «كينكاس» هدير الماء «ينعم برفقتهم. أولئك الرعاع ماذا يفعلون هنا؟ إنهم لا يصدقون أنّ «كينكاس» هدير الماء قد انتهى من الوجود تماماً حين أطلق زهرته الأخيرة دون رجعة؟ وأنّه لم يكن سوى ابتكار من ابتكارات الشيطان؟ مجرد حلم مزعج، وكابوس؟

أمّا «جواكيم سواريس دا كونيا» فسيعود وهو في كامل الاحترام للالتقاء بأهله من جديد، في رفاه منزل محترم. لقد حانت ساعة العودة ولم يعد في وسع «كينكاس» هذه المرة أن يضحك في وجه ابنته وصهره، أو أن يرسلهم لزراعة البطاطا، وأن يودّعهم ساخراً ويرحل وهو يصفر. إنه الآن ممدّد، بلا حراك ولا أنفاس، على فراشه البائس

الحقير. نعم، لقد انتهى «كينكاس هدير الماء».

رفعت «فندا» رأسها وجالت بنظرها الحازم بين الحضور وأمرت بذلك الصوت الذي ورثته عن «أوتاسيليا»:

هل تريدون شيئاً؟ إن كنتم لا تريدون شيئاً فبإمكانكم الانصراف. ثم توجهت إلى بائع التماثيل الدينية.

هل تفضلُ حضرتك باستدعاء الطبيب من أجل شهادة الوفاة؟

فأجاب الرجل الطيب موافقاً بتحريك رأسه، وخرج والتأثر الشديد بارز على ملامحه، بينما كان الآخرون ينصرفون متمهلين، لتبقى «فندا» وحيدة مع الجثة التي لم تكن لتكف عن الابتسام... وقد بدا إبهام قدمها اليمنى الضخم أكثر تضخماً وكأنه كان ينمو في ثقب الجورب.

IV

بحثت حولها عن شيء تجلس عليه. فلم تجد، علاوة على السرير، سوى صفيحة «كيروزين» فارغة. رفعتها، ثم مسحت عنها الغبار وجلست تحدّث نفسها:

تساءلت في البداية عن الوقت الذي يمكن أن يستغرقه الطبيب للوصول إلى هنا، ثم راحت تتخيّل «ليوناردو» وهو يروي، بإسهاب حادثة موت والدها المفاجئة، لمديره الذي سبق له أن تعرّف إلى «جواكيم» في تلك الأيام السعيدة، حين كان يعمل في دائرة الضرائب. «لكن من لم يعرفه؟ ومن لم يحترمه في تلك الأيام؟ وهل كان يمكن لأحدهم أن يتوقّع له مثل هذا المصير؟ واستطردت مستسلمة لتخيّلاتها: «من المؤكّد أنّ «ليوناردو» يجتاز الآن لحظة عصيبة صعبة وهو يحاول أن يشرح لمديره بإسهاب سرّ الطريق الذي سلكه هذا الرجل العجوز الأخرق في آخر أيّام حياته.. والأسوأ من ذلك لو انتشر الخبر بين زملائه، فحينها ستبدأ النميمة في الانتقال من طاولة إلى أخرى وتمتلئ الأفواه بابتسامات الرياء والنكت الفاضحة والتعليقات السوداء..

حقاً إنّ احتمال ممارسات مثل هذا الأب هو تضحية أرهقت كاهلهم، وصليب حملوه في صعودهم إلى الجلجلة، ولكنهم شارفوا الآن على قمة الجبل، وما عليهم سوى قليل من الصبر..

ألقت «فتدا» نظرة من طرف عينيها على الميت، فوجدته ما يزال يبتسم وكأنّه يرى كلّ ما يحدث حوله مُسلياً بشكل لا نهائي.

أليس الغضب من الموتى خطيئة كبرى؟ فلماذا انحشور رؤسنا بالأفكار السيئة عنهم، لا سيما إذا كان هذا الميت أباك. حينها تمالكك «فندا» نفسها، إنها امرأة تقيّة، ترتاد كنيسة «النهاية السعيدة» بانتظام، تميل أكثر إلى الروحانيات، وتعتقد في تناسخ الأرواح. ومهما يكن من أمر، فإن ابتسامه «كينكاس» لم تعد تعني لها أي شيء، فهي المسكة بزمام الأمور الآن، وعمّا قريب لن تبقى منه غير روحه التي ستُبعث ثانية متجسدة في الكائن الوديع والمواطن المسالم «جواكيم سواريس دا كونيا» المنزه عن كل خطأ.

عاد بائع التماثيل الدينية مصحوبا بالطبيب، كان شابا والأکید أنه حديث التخرج، ذلك أن الاضطراب كان واضحا على ملامحه وهو يُجهد نفسه ليدو في مظهر المُحترف الكُفء. أشار بائع التماثيل إلى الميت، فيما قدّم الطبيب نفسه إلى «فندا»، ثم فتح حقيبته الجلدية اللامعة. فقامت «فندا» ودفعت جانبا صفيحة «الكبروزين».

- بأي شيء مات؟

وقام بائع التماثيل الدينية بالإيضاح:

- لقد عُثر عليه ميتا كما هو الآن..

- هل كان يعاني من مرض ما؟

- لا أدري، لا أدري يا سيدي. أعرفه منذ حوالى عشر سنوات وكان

دائما سليما كالثور. إلا إذا كان الدكتور يُسمي...

- ماذا؟

-... يُسمي «الكشاسا» مرضا. كان فتانا في البلع.. يرفع مرفقه

قليلا ويلقي بما في الكأس دفعة واحدة.

سعلت «فندا» مستاءة. فتوجّه الطبيب إليها:

- هل كان يعمل عندك يا سيديتي؟

سادت لحظة وجيزة من الصمت الثقيل. ثم جاء الصوت من بعيد:
- إنه أبي.

كان الطبيب شابًا لم يختبر الحياة بعد، ففاس بنظره «فتدا»
بلباسها الأنيق الأشبه بثياب أيام العيد، ونظافتها الساطعة، وكعبها
المالين. ثم راح يتأمل فقر الميت المدقع وغرفته البائسة العطنة.
- وهل كان يعيش هنا؟

- فعلنا كل شيء من أجل أن يعود إلى البيت. لقد كان...

- مجنونًا؟

فتحت فتدا ذراعيها وقد تملكتها رغبة في البكاء. لكن الطبيب لم
يكح. بل جلس على حافة السرير وبدأ الفحص. ثم رفع رأسه وقال:
- انظروا كيف يضحك! ههه... إنه يسخر منّا بوجهه الخليع...
فأغمضت «فتدا» عينيها وضغطت على يديها ووجهها يكاد يقطر
حُمرةً من الخجل.

لم يدم مجلس العائلة زمنا طويلا. جرت المناقشة في مطعم «بايشا دوسباتيرو» المواجه مباشرة لقاعة السينما، في الشارع المزدهم حيث كانت الحشود تمرّ بسرعة ومبتهجة، بينما كانت العائلة تتشاور في ترتيبات الدفن. وقد تقرّر أن يوكل أمر الجنازة إلى وكالة مختصة في دفن الموتى، وهي ملك لأحد أصدقاء العم «إدواردو» وعدهم بحسم 20 % من النفقات.

وحسب إيضاحات العم «إدواردو» فإنّ التابوت هو الأكثر كلفة، وكذلك السيارات، أمّا إذا كان في موكب الجنازة حشد كثيف من المُشيعين، فذلك يكلف ثروة! في هذه الأيام لم يعد بمقدورك حتى أن تموت!

اشتروا بذلة جديدة سوداء من محلّ قريب من هناك، (لم يكن فماشها يساوي شيئا، ولكنّه على حدّ عبارة «إدواردو» فاخر أكثر من اللازم ما دام سيصبح طعاما للّديان) كما اشتروا حذاء أسود، وقميصا أبيض، إضافة إلى ربطة عنق وجوربين. أمّا الملابس الداخليّة فلا حاجة إليها.

لم يفوت العم «إدواردو» صنفا واحدا من هذه المقتنيات إلّا وسجّله في دفتر صغير. فهو خبير في الاقتصاد وحسن التدبير ودكّان بقالته في ازدهار مستمرّ.

بعد ذلك كان «كينكاس هدير الماء» بين أيدي المختصين في وكالة الدفن، يعود شيئا فشيئا إلى «جواكيم سواريس دا كونيا»، فيما كان

الأقارب في المطعم يتناولون السمك، ويتناقشون في موضوع الدفن. وفي الحقيقة لم يصر نقاشاً بأنّ معنى الكلمة إلّا حين تعلق الأمر بالمكان الذي ستوضع فيه الجثة.

فكرت «فندا» في أخذ الجثمان إلى البيت وقبول التعازي في الصالون حيث تُقدّم القهوة والمشروبات والحلويات للحضور طوال السهرة. وفي الصباح الباكر يُستدعى الأب «روك» لتلاوة صلاة الجنازة ويتحرّك الموكب كي يتمكّن أكبر عدد من الناس من المجيء ولا سيّما زملاء العمل والمعارف القدامى وأصدقاء العائلة. ولكنّ «ليوناردو» عارض الاقتراح. لماذا ينبغي نقل الجثمان إلى البيت؟ ولماذا ندعو الجيران والأصدقاء ونخرج الناس من أجل لا شيء؟ فلن يكون ذلك إلّا ذريعة ليتذكّر كل هؤلاء جنون هذا المعجوز السافل وحياته الشاذّة البائسة خلال السنوات الأخيرة وينشروا عار العائلة أمام العالم كلّها وذلك تحديداً ما وقع له في المكتب هذا الصباح، فقد راح كلّ ملمون يعرف قصّة عن «كينكاس» يرويها ضاحكاً مُقهقها، إلى درجة أنّه هو «ليوناردو» بالذات، لم يكن يتوقّع يوماً أنّ حماء قد ارتكب هذا العدد المريع من الحماقات، فكلّ حكاية كانت كافية وحدها بأن تجعل شعر رأسه يقف هلعاً... علاوة على أنّ كثيراً من الناس يعتقدون أنّ كينكاس مات ودُفن، وهو يعيش الآن في مكان ما من أعماق مدينة «باهيا». والأطفال؟ ألم تفكّروا فيهم؟ لماذا نسّم في رؤوسهم الذكرى الجميلة لجدّ مثاليّ تنام روحه مطمئنّة سالمة في رحاب الله، فيأتي الأبوان بغتة بجثمان متشرّد على الأكتاف ويلقيانه في وجه هؤلاء الأبرياء المساكين؟

هذا، دون الحديث عن الجهد الكبير في افتعال الحزن والتظاهر بالتأثّر الشديد، وعن هذه المصاريف التي لا تكفّ عن الارتضاع وكأنّه لا تكفيه مصاريف الدفن والبذلة الجديدة وزوج الأحذية. لقد كان هو،

«ليوناردو»، في حاجة إلى زوج من الأحذية ومع ذلك فقد أصلح حذاءه
البالي تماما عساه يوفر شيئاً ما، والآن، بعد كل هذه النقود الملقاة من
النافذة، كيف يمكنه مجرد التفكير في حذاء جديد؟

ولقد شاطرته «العمة ماروكاس» الموقف نفسه دون أن تتوقف عن
التلذذ بسمك المطعم، ثم أوضحت:

. الأفضل أن نشيع خبراً يُفيد بأنه مات خارج المدينة ودُفن هناك،
وأنا تلقينا برقية بهذا المعنى. ثم ندعو الناس إلى قداس اليوم السابع
بعد الدفن، وحينها يمكن لمن يشاء أن يحضر. فتحن غير مجبرين
على فعل كل شيء.

فقالت «فتدا» وقد توقفت شوكتها في منتصف الطريق إلى فمها:
- رغم كل ما فعل فهو أبي ولا أريد أن يُدفن مثل متشرد حقير. هل
كنت ستوافق على ذلك لو أنه كان والدك يا «ليوناردو»؟

لم يكن العم «إدواردو» رجلاً عاطفياً فقال بوضوح:
- وماذا كان إذن؟ ألم يكن متشرداً بل ومن أسوأ متشردي باهيا.
لا أستطيع أن أنكر ذلك حتى وإن كان المعنى أخي...

وتجشأت العمة «ماروكاس»، بعد أن ضربت التُخمة بطنها وقلبها معا:
- يا لـ«جواكيم» المسكين ... كان رجلاً طيباً. ولم يُسئ إلى أحد.
لقد تملكه حب جارف لحياة التشرّد هذه، وكأنها كانت قدره منذ
الصغر. ألا تذكر ذلك يا «إدواردو»؟ في إحدى المرات كان يريد أن
يرحل مع جماعة السيرك؟ وحينها سُلخ سلخاً من شدة العقاب.

ولطمت العمة «ماروكاس» «فتدا» التي كانت جالسة إلى جانبها
لطمّة على فخذهما وكأنها تعتذر لها، ثم أردفت:

- و أمك يا صغيرتي، كانت متسلطة بعض الشيء. أذكر أنه فرّ
بعيدا ذات يوم، وحين عاد قال إنه يريد أن يكون حراً كعصفور. وفي

الحقيقة كم كان ظريفا.

ولكن لا أحد من الحاضرين وجد في كلامها ما يدل على الظرافة وخفة الظلّ حتّى أنّ «فتدا» قطبت حاجبيها مستغربة وعادت إلى الهجوم:

- لست أخطّ من شأنه إذا قلت: إنّه سبّب لنا كثيرا من الألم والمعاناة وخاصة لـ«ماما» التي كانت امرأة طيبة، دون الحديث عن «ليوناردو».. و لكنني لن أسمع رغم كلّ شيء بدفنه مثل كلب بلا صاحب. ماذا سيقول الناس حين يعلمون بذلك؟ لا أحد يمكنه أن ينكر أنّه كان شخصا محترما قبل أن يسكنه الجنون. ولا بدّ أن يُدفن بشكل محترم.

رمقها «ليوناردو» بنظرة متوسّلة، كان يعلم أنّه لا فائدة في النقاش مع «فتدا» وأنها تنتهي دائما بفرض وجهات نظرها وإرادتها، وكذلك كان شأن «أوتاسيليا» مع «جواكيم» حتّى جاء اليوم الذي قال فيه لكلّ شيء: «إلى الجحيم» ثمّ هجر البيت.

إذن، لا فائدة من النقاش، سوف تُجرّ الجثة إلى المنزل وسيتمّ إعلام الجيران والأقارب والأصدقاء وسُتدعى الناس بالهاتف كي يقضي هو «ليوناردو» ليلة كاملة بلا نوم، يستمع إلى القصص عن «كينكاس» ويتحمّل المجاملات الزائفة والابتسامات الخبيثة وغمزات الأعين الساخرة.. ويظلّ على هذه الحال إلى أن تُختتم السهرة.. هذا ما جناه عليه حمّوه الذي طالما سمّم حياته وسبّب له أكبر المضايقات حتّى أنّه كان يعيش تحت وطأة الخوف من وقوع مصيبة أخرى من مصائب هذا العجوز، فلم يتصفّح جريدة إلاّ تملّكه الخوف من قراءة خبر عن إيقاف «كينكاس» جرّاء التشرّد كما حصل ذات مرة، لم يعدّ يريد تذكّرها إلى الآن، حين لم يجد الوقت ليخبر «فتدا» بما قرأه في الجريدة وخرج لتوّه يبحث في مراكز الشرطة وكلّ مركز يرسله إلى

الآخر، إلى أن عثر في النهاية على «كينكاس» في قبو السجن المركزي، حافي القدمين، بملابسه الداخلية، وهو يلعب البوكر بكل طمأنينة وسلام مع اللصوص والمجرمين. وبعد إجراءات عديدة خرج بكفالته. وحين تصوّر أخيراً أنه سيتنفس الصعداء، وجد نفسه يتحمّل هذه الجثة في ضيافته طوال يوم وليلة بين جدران بيته...

العمّ «إدواردو» لم يكن موافقاً هو أيضاً، لقد تكفّل بجزء من المصاريف وينبغي أن يكون رأيه مسموعاً، فقال مخاطباً «فندا»:

- حسناً، يا «فندا» كما ترغبين.. فليدفن مثل مسيحي جيّد بتابوت وبذلة جديدة وأكاليل من الزهور وجناز صلاة.. وإن كان لا يستحق شيئاً من هذا، ولكنه في النهاية أبوك.. وهو أخي.. هذا كلّ جميل جداً، ولكن لماذا نحشر المرحوم في المنزل؟

- أجل! لماذا؟

هكذا ردّد «ليوناردو» مثل الصدى.

- ... لماذا نخرج نصف العالم؟ ونضطر إلى استئجار ستّ سيارات أو ثمان على الأقل؟ هل تعرفين كم تكلف السيارة الواحدة؟ وكم يكلف نقل الجثمان من «طوياو» إلى «إتاباجيب»؟ سيكلف ذلك ثروة بلا شك. لماذا لا تخرج مراسم الدفن من هنا بالذات؟ ونذهب نحن في تشييعه. وهكذا فإنّ سيارة واحدة تكفي. وبعدها إن كنتم ترون في المسألة أهمية كبرى، ندعو الناس إلى قداس اليوم السابع.

- ونعلن أنّه مات خارج الولاية.

أكملت العمّة ماروكاس الفكرة متمسكة باقتراحها السابق. فأجابها:

- هذا ممكن تماماً، ولم لا؟

- ومن الذي يسحضر سهرة المأتم؟

- نحن فقط.. لماذا نحتاج إلى شخص آخر؟

انتهى الأمر بـ «قندا» إلى الرضوخ، وفي الحقيقة فقد كانت مقتنعة
في قرارة نفسها بأن فكرة نقل الجنة إلى المنزل فكرة عبثية. ولن يؤدي
ذلك إلا إلى مزيد من النفقات والمتاعب. الأفضل إذن، أن يُدفن في
إطار عائلي محض، ثم يُدعى الناس لاحقا إلى قدّاس اليوم السابع.
وهذا ما تقرر فعلا.

انتهى الطمام فطلبوا الحلويات، بينما كان مكبر صوت ينهق في
الخارج معلنا عن عروض بيع رائعة تقدّمها شركة محلية للعقارات.

VI

عاد العم «إدواردو» إلى دكانه، فهو لا يريد أن يتركه تحت رحمة أولئك الأوغاد عمّاله اللصوص. ووعدت العمّة «ماروكاس» بالعودة مساءً لحضور مراسم التوديع. كان ينبغي أن تعود بسرعة إلى بيتها بعد أن تركت كلّ شيء فيه مقلّوباً رأساً على عقب بمجرد أن بلغها خبر الموت. وسيكرّس «ليوناردو»، بنصيحة من «هندا» نفسها، وقت فراغه بعد الظهر للذهاب إلى مقرّ الوكالة العقارية ليؤجّل دفع قسطه في قطعة أرض صالحة للبناء. لقد اشتريا هذه الأرض بالتقسيط وفي يوم ما سيكون لديهما، بفضل مساعدة الرب، منزلهما الخاص.

لقد قرروا توزيع الأدوار في السهر على الميت بشكل متابعي: «هندا» و«ماروكاس» بعد الظهر و«ليوناردو» والعم «إدواردو» في الليل. إذ لا وجود لسيدة محترمة واحدة قد تتجرّأ على الظهور ليلاً عند «منحدر طوباو» وهو مكان سيئ السمعة لا يرتاده غير المجرمين والعاهرات. أمّا في صباح الغد فإنّ العائلة كلّها ستجتمع من أجل مراسم الدفن.

وهكذا وجدت «هندا» نفسها في عصر ذلك اليوم وحيدة مع جثمان الميت. تناهى إلى سمعها ما إن وصلت إلى الطابق الثالث صخب حياة الفقر الذي كان يتصاعد من المنحدر إلى أعلى ذلك البناء الوسخ حيث سُجّي «كينكاس» ليرتاح قليلاً بعد العناء الذي مرّ به أثناء تغيير ثيابه وتجهيزه بعناية وإتقان.

لقد كان رجال وكالة الدفن يعرفون أسرار عملهم جيّداً، فحقّقوا إنجازاً كبيراً حتّى أنّ بائع التماثيل الدينيّة الذي ظهر ليرى كيف تسير

الأمر لم يتمالك نفسه عن الهتاف: «هذا الميت شخص آخر».

كان الميت ممشّط الشعر، حليق اللحية، يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض وربطة عنق جديدة وينتعل حذاءً لماعاً. "هذا هو حقاً «جواكيم سواريس دا كونيا» النائم في تابوت يليق بملك" هكذا علقت «فندا» في قرارة نفسها وهي تراقب بارتياح مقابض التابوت المذهبة وجوانبه الموشاة بالدانتيل. لقد أعدوا بواسطة بعض الألواح الخشبية ما يشبه الطاولة، وضعوا عليها النعش هادئاً ونبيلاً، وأضيئت إلى جانبه شمعتان طويلتان تُشعّان بنور خافت يكاد لا يقوى على الصمود في وجه أضواء مدينة «باهيا» المتسلّلة من النافذة. كلّ هذا النور.. بل كلّ هذا الإشراق السعيد، كان يبدو في نظر «فندا» وكأنّه يُهين الموت بجعله الشمعتين المرتعشتين بلا فائدة وبلا وميض. فكّرت لحظة في إطفائهما بغية التوفير، ولكن مادامت الوكالة تقبض المبلغ نفسه سواء استهلكوا شمعتين أو عشرًا، فقد اكتفت بإغلاق النافذة. وهكذا غرقت الغرفة في العتمة وانبعثت ألسنة اللهب المقدّس بوضوح.

جلست «فندا» على الكرسي الذي أعارها إياه بائع التماثيل الدينية، وهي تشعر بالارتياح ليس فقط لأنّها أدّت واجبها كابنة، بل لسبب آخر أعمق بكثير... فتتفّست الصعداء وسوّت بيديها شعرها الكستنائي. لقد ساورها الإحساس بأنّها نجحت أخيراً في ترويض «كينكاس»، وبأنّها تمسك بعنانه من جديد، هذا العنان الذي انتزعه يوماً ما من قبضة «أوتاسيليا» القويّة، وسخر منها.

ولاح ظلّ ابتسامة على شفّتي «فندا» الجميلتين والساحرتين حين تتخلّى عن ابتسامتها الصارمة، وهي تشعر بأنّها انتقمت لأمّها من كلّ ما حمّله «كينكاس» لعائلته من مصائب وآلام، ولأمّها «أوتاسيليا» بصورة خاصّة سنوات وسنوات حتّى كاد يفدو سلوكه إذلالاً لا نهاية

له... عشر سنوات من البوهيمية والعبت عاشها «كينكاس» بطمها وطميمها، ما انفكوا يطلقون عليه خلالها لقب «ملك متشردي باهيا» في كل مكان، في الشوارع وفي الزوايا المخصصة للشرطة على أعمدة الصحف حتى أصبح اسمه مضافة على كل لسان، وغدا بعض الكتاب التافهين المتعطشين إلى الأخبار الغريبة السهلة، يصورونه في زواياهم أنموذجا مختزلا لكل أبناء الشوارع. عشر سنوات قضّاها وهو يلمّخ عائلته بالعار، ويوقعها في أحوال شهرته اللعينة: «شريب الكشاسا في سلفادور»، و«فيلسوف منحدر السوق الرث»، و«سيناتور التسكع والحانات»، و«كينكاس هدير الماء»، و«المتشرد بامتياز»... وغيرها وغيرها من الألقاب التي كانت تُطلق عليه في الصحف مرفوقة في كثير من الأحيان بصورته القذرة.

يا إلهي! أية معاناة على البنت أن تتحمل في هذه الدنيا، حين يكون الصليب الذي أعدّه القدر لها والدًا ليس لديه وعي بواجباته؟ لذلك فإنّها تشعر بالسعادة الآن وهي تنظر إلى الجثة الساكنة في تابوت شبه فاخر، ببذلتها السوداء وبديها المتصالبتين على الصدر في حالة من الورع والندم، وحذاءها الجديد اللامع تحت شعاع الشمعتين... كان كل شيء لائقا ما عدا الغرفة، طبعا. وباله من عزاء لمن تعذب كثيرا. تخيلت «هندا» «أوتاسيليا» والسعادة تغمرها هناك في غياهب الكون البعيد حيث ترقد روحها لأن أمنيتها تحققت أخيرا، فلقد أعادت ابنبتها ذلك المجنون إلى الرشد فرجع مرة أخرى «جواكيم سواريس دا كونيا» الرجل الطيب الخجول، والأب المثالي والزوج المطيع الذي يكفي أن ترفع صوتها أمامه ليخفي وجهه ويمود عاقلا متصالحا معها من جديد.

ها هو ذا إذن ويداه متصالبتان على صدره... أما «المتشرد

بامتياز»، «سيناتور التسكع والحانات» و«بطريق أوساط الدعارة السفلى» فقد مات ورحل إلى الأبد. رحل لسوء الحظ ولم ير نفسه في المرأة لكي يكون شاهداً على انتصار ابنته وأفراد عائلته الكريمة، بعد كل ما سببه لهم من الذل والهوان.

في هذه اللحظة الحميمة من الرضى العميق، والزهو بالانتصار، كانت «فتدا» تشعر بالطيبة والسخاء، فأرادت أن تنسى السنوات العشر الماضية، كما لو أن رجال وكالة دفن الموتى قد طهروها بواسطة الخرق المبللة بالماء والصابون، الخرقه نفسها التي استخدموها لتخليص جسد «كينكاس» من أوساخه. ولم تكن تريد أن تتذكر سوى أعوام طفولتها وشبابها وفترة خطبتها وزواجها، والطيف الوديع لـ«جواكيم سواريس دا كونييا»، شبه المختفي في كرسي من القماش غارقاً في قراءة جريدته، لا يصحو من غيبوبته تلك إلا حين يأتيه صوت «أوتاسيليا» بلهجة تأنيب: «جواكيم» فيتوقف عن القراءة ويهبط واقفاً.

على هذه الصورة كانت تحب أن تتذكره وتشعر نحوه بالحنان. هذا هو الأب الذي تشتاق إليه، وبقليل من الجهد الإضافي في العودة إلى الورا بإمكانها أن تتأثر أكثر كأن تشعر بأنها يتيمة مسكينة ولا شيء بقدر على تعزيتها.

كانت وطأة الحرارة تشتد في الغرفة أكثر فأكثر بعد أن أغلقت النوافذ، ولم يجد النسيم البحري فتحة يتسلل منها... لكن «فتدا» لم تكن تريد ذلك النسيم، ولا البحر، ولا المرفأ، ولا المسالك الجبلية المرتفعة، ولا تريد حتى مجرد الحديث عنها، فقد صارت كلها لحظة غابرة من تلك الحياة الرديئة الغابرة.

هنا لا مكان إلا لها ولوالدها الميت الفقيد «جواكيم سواريس دا

كونيا»، ولهذه الذكريات الجميلة الفادرة التي خلفها لها... كانت تتنزع من أعماق ذاكرتها صفحات منسية منها: تذكرته حين كان يرافقها إلى ساحة الجياد الخشبية في «ريبيرا» بمناسبة عيد «البونفيم». كان مرحا طيبا أكثر من أي وقت مضى، وحين رفعها على ظهر الحصان الخشبي، جلجلت ضحكته هو الذي لم يكن يبتسم إلا نادرا، فما بالك بالضحك؟ وتذكرت أيضا الاحتفال الصغير الذي أقامه له حشد من الزملاء والأصدقاء بمناسبة ترقيته في إدارة الضرائب. كان المنزل يعمّ بالمدعوين، وكانت هي «فتدا» في بداية أيام شبابها تنهّجى للتو مغازلات الشبان. في ذلك اليوم، كادت «أوتاسيليا» تنفجر من البهجة والسرور وسط الجموع الموجودة في الصالون تحت تأثير البيرة والخطب الجميلة التي ألقىت بالمناسبة. يومها قدّم للموظف الناجح المحتفى به قلمّ حبر علامة على التقدير المتناهي والاحترام الشديد فدخلت والدتها في غيبوبة من الزهو والحبور وكأنها هي التي تمّ تكريمها.. أمّا «جواكيم» فكان يُنصت إلى الخطب، ويُصافح الأيدي الممدودة، مُمسكا بالقلم دون اكتراث، وكأنه سئم كل هذا التملق دون أن يجرؤ على قول ذلك.

تذكرت أيضا ما قاله لها والدها حين أخبرته بأن «ليوناردو» قادم ليطلب يدها.. إذ اكتفى بهزّ رأسه والهمس: «مسكين بائس!» ولأنها لم تكن تقوى على تحمّل أيّ إساءة تمسّ حبّ حياتها فقد اعترضت فوراً: - مسكين بائس! لماذا؟ إنه من عائلة محترمة، ولديه عمل جيّد، إضافة إلى كونه لا يعاشر النساء، ولا يرتاد الخمارات.

- أجل، أعلم.. أعلم.. كنت أفكر في شيء آخر.

الغريب أنها لم تكن تستطيع استحضار مزيد من الذكريات عن أبيها وكأنه لم يكن له أيّ وجود فاعل في نشاط المنزل، على خلاف

أمّها، فقد كان باستطاعتها أن تقضي ساعات وساعات في تذكّر أعمال «أوتاسيليا» وحركاتها بشكل مفصّل، بل كانت تستطيع تذكّر أقوالها والجزئيات الصغيرة التي كانت والدتها تتدخّل فيها. وفي الحقيقة فإنّ «جواكيم» لم يتخذ أهميّة في حياتهما إلاّ ابتداءً من ذلك اليوم حين تفرّس فيهما بنظره طويلا، بعد أن نعت «ليوناردو» بـ «الحمار الأبله» ثمّ قذف في وجهيهما عبارته العجيبة: «حيّتان قذرتان!» ثمّ تحرّك بأعظم هدوء وجد في هذا الكون، وكأنّه قام بأتفه الأعمال وأكثرها بساطة على الإطلاق، ورحل ولم يعد.

ولكنّ «فندا» لم تكن تريد أن تتذكّر شيئا من تلك الذكريات، فسافرت أبعد، إلى طفولتها البعيدة، حين كان «جواكيم» أكثر وضوحا. وهكذا وجدت نفسها في سنّ الخامسة، بنتاً طويلة الشعر، تجتاحها الحمى اجتياحا والدموع تنهمر من عينيها. عندها لم يفادر «جواكيم» الغرفة مُطلقا. بل ظلّ جالسا قرب المريضة الصغيرة ممسكا بيدها طوال الوقت ومن حين إلى آخر يقدّم لها الدواء. كان أبا طيّبا وزوجا وديعا.

بهذه الذكرى الأخيرة وحدها أحسّت «فندا» بالتأثير الشديد، حتّى أنّها همّت بالبكاء ولكنّ الغرفة كانت خالية للأسف، آه.. لو انتابها هذا الإحساس في الجنازة لكانت قادرة على سفح بعض الدموع أمام الناس كما يليق بابنة صالحة.

حدّقت في الجثّة مليّا، فبدا لها الوجه كئيبا، والحذاء برّاقا تحت ضوء الشموع، والبذلة نظيفة لائقة، وبدت يداها مصلوبتين على صدره وكأنّه يتأهب للصلاة، فيما تسمرت عيناه في محجريهما. وقّع بصرها على الوجه الحليق النظيف، فصعقتها الصدمة. ما هذه الابتسامة الوقحة الخبيثة المستهزئة؟ وحدها هذه الابتسامة لم تتغيّر، حتّى

أن مهارة عمّال وكالة دفن الموتى لم تستطع إزاءها أي شيء. وينبغي الاعتراف بكل صراحة بأنها نسيت هي نفسها أن تسألهم عما إذا كان بالإمكان تسوية هذه الابتسامة الشاذة بما يتناغم مع قدسيّة الموت.. كل شيء تغيّر وعاد إلى أصله «جواكيم سواريس دا كونيا» إلا هذه الابتسامة اللعينة فقد ظلت ابتسامة «كينكاس هدير الماء»، ابتسامة سخرية واستهزاء يقابلها في الطرف الآخر حذاء جديد لامع، بينما «ليوناردو» المسكين مضطّرّ إلى ترقيع حذائه ألف مرّة قبل أن يفكر في حذاء جديد. وما هي فائدة هذه البذلة السوداء؟ والقميص الأبيض؟ واللّحية الحليقة الناعمة؟ والشعر المصفّف بعناية؟ واليدين المضمومتين للصلاة؟ ما فائدتها جميعا وهذه الابتسامة اللّعينة تعبت بكل شيء؟

وفي الواقع فإنّ «كينكاس» كان يضحك من هذا كله، وكانت ضحكته تكبر وتنتشر، ولن تلبث خلال وقت قصير أن تُدوي في هذه الغرفة البائسة! كان يضحك بشفتيه وعينه مصوّبا نظراته إلى تلك الكومة القذرة من القمامة، تلك الملابس المرقّعة الوسخة المنسيّة في إحدى الزوايا من قبل رجال وكالة الدفن... إنّها ضحكة «كينكاس هدير الماء» المعهودة، وكلّ تفصيل فيها يحمل إهانة صريحة متلاشية في الصّمت الجنائزيّ الذي فرضه الموت. خيّل لـ «فتدا» أنّها تسمع عبارة «حيّة قذرة!» فخافت وبرقت عيناها كما كان يحصل مع «أوتاسيليا»، حتّى شحب وجهها ومال لونه إلى البياض... إنّها شتيمته المألوفة، ولطالما قذفها في وجهيهما كلّما سمعنا إلى إقناعه بالعودة إلى هدوء المنزل وعاداته القديمة واحتشامه المفقود.

واليوم، حتّى وهو ميت مسجّى في تابوته بثيابه الفاخرة، والشموع المضيفة فوق قدميه فإنّه يرفض الاستسلام! مسترسلا في الضحك

بفمه وعينه، ولن يكون مفاجئاً لها إذا سمعته يصفر أو رآته يرفع
سبّابته مشيراً إليها بسخرية: «حَيَّة قذرة»، ثمَّ يعود إلى تصفير بعض
نغماته السافلة.

ارتعدت «فندا» على كرسيّها، ثمَّ فركت عينيها بيديها، وتساءلت
في قرارة نفسها إن كانت مجنونة حقّاً! أحسّت بأنّها تكاد تختنق في هذه
الغرفة المظلمة الحارة، وبدأ رأسها يدور.. حتّى سمعت فحيح شهيق
وزفير على الدرج.. لقد قدمت العمّة «ماروكاس» البدينة وهي تلهث
من الجهد، وحين رأت ابنة أخيها شاحبة الوجه، مرتعدة الأوصال،
ونظراتها مثبتة على الميت، هتفت:

- أراك منهارة تماماً، يا ابنتي!

ثمَّ فكّرت دون أن تنتظر جواباً في الحرّ الشديد داخل هذه الغرفة
الحقيرة، فيما اتّسعت ابتسامه «كينكاس» الماجنة، حالما رأى أخته
وكأنّه يسخر من بدانتها المفرطة، فوضعت «فندا» إصبعيها في أذنيها،
كي لا تسمع ما يمكن أن يتفوّه به من كلمات حقيرة لنعت «ماروكاس»
ولكن دون جدوى فسرعان ما تهاوت إليها عبارته المألوفة في وصف
أخته: «ها هو كيس الضراط الضخم»!

كانت ماروكاس تستعيد أنفاسها شيئاً فشيئاً، ودون أن تلقي نظرة
واحدة على الجثة، فتحت النافذة على مصراعها. وسألت:

- هل عطّروه بالطيب أم لا؟ إن رائحته تُدير الرؤوس.

وتسرّبت عبّر النافذة المفتوحة جلبه الشارع بأصواته المتقاطعة
المبهمة، وأطفأت نسمات البحر ضوء الشموع مُداعبةً وجه «كينكاس»
الذي غمره نور أزرق وضّاء، فبدأ مستريحاً في تابوته وعلى شفّتيه
ابتسامه ظاهرة.

VII

في تلك الساعة كان خبر موت «كينكاس هدير الماء» المباغت ينتشر في شوارع مدينة «باهيا» بسرعة غير متوقعة. صحيح أن تجار السوق لم يغلّقوا دكاكينهم تعبيرا عن الحداد. لكنهم رفعوا على الفور أسعار دمي الأطفال، وحقائب السعف، والمنحوتات الطينية التي كانوا يبيعونها للسيّاح وكأنهم يؤدّون بذلك ضريبة للرجل الميت على طريقته الخاصة... وعلى مقربة من السوق شكّلت تجمّعات صاخبة تشبه الاجتماعات السياسية السريعة، والناس يتقلّون من مكان إلى آخر، فيما الخبر يطير في الهواء، يستقلّ مصعد «لاسيردا»، ثمّ يسافر في الترامات إلى «كلسادا»، ويصعد في الحافلة إلى سوق «سنتانا».

حالما بلغها الخبر، انفجرت «باولا»، تلك الزنجية الرشيقة، بالدموع أمام طبقها من حلوى «التايوكا»¹. فلن يأتيها «هدير الماء» في ذلك المساء إذن، لن يغمرها مرّة أخرى بكلمات الغزل المنتقاة ببذاءة نادرة، ولن يحاول مجدّدا أن يقرصها من رمانتي صدرها الممتلئتين، ويقوم بحركاته المعتادة الماجنة التي تدفعها إلى الضحك.

وفي خليج «إيمانجا»² الساحر لم يستطع البحّارة السُمر الذين لوّحت الشمس أجسادهم أن يكتموا دهشتهم ولا خيبة أملهم من مية «كينكاس» هذه: كيف يمكن لهذا الموت أن يكون داخل غرفة في «طوباو»؟ كيف أمكن لذئب البحار هذا، أن يُسلم الرّوح بهذه الطريقة

(1) «التايوكا»: مستحضر نشويّ لإعداد الحلوى. (المترجم).

(2) «إيمانجا»: هي إلهة الماء المالح حسب المعتقدات الدينية الأفرو-برازيلية (المترجم).

البائسة على سرير ثابت؟ ألم يجاهر هو نفسه مرارا وتكرارا بصوت ونبرة يكفیان لإقناع أكثر الناس شكّا بأنّه لن يموت على البرّ أبدا؟ وبأنّ القبر الوحيد الذي يليق بروحه الجامعة ليس سوى البحر المغتسل برذاذ القمر في الزرقة الحيّة المتجدّدة بلا نهاية.

لم يحدث لـ «كينكاس» أن كان ضيف شرف في مؤخّرة قارب الصّيد، وأمامه طبق من الأسماك اللّذيذة، ورائحة البخار الشهيّ تتصاعد من قدر الفخّار، فيما قارورة «الكّشاسا» تنتقل من يد إلى أخرى، وصوت القيثارة يحرك ما ركذ في أعماق الرّوح... لم يحدث له ذلك إلّا واستيقظت داخله غرائزه البحريّة كلّها. حينها كان ينهض مترنّحا تحت تأثير «الكّشاسا» التي تحاكي بمفعولها هذا التمايل الخاصّ بإيقاع المركب على البحر، ويهتف بصفته «بحّارا عتيقا» بأنّه «ذئبّ عجوز» «ذئبّ بحر» بلا مركب وبلا بحر، وهو مستاء للعيش على هذه الأرض رغم أنفه. فقد خلق في الحقيقة لأجل البحر، خلق لكي يرفع الأشرعة، ويتحكّم في دفة مراكب الصّيد، ويروّض الأمواج في الليالي العاصفة. ولقد تحطّم مصيره هو الذي كان باستطاعته أن يُصبح قبطان سفينة ببذلة زرقاء والغليون في فمه! ولكنّ ذلك لا يمكن أن يجردّه من صفة البحّار الحقيقيّ. فلأجل ذلك ولدته أمّه، «مادلينيا»، حفيذة قبطان إحدى السفن. إنه من سلالة البحر، وإذا أعطوه ذلك المركب، فسيكون قادرا حتما على الإبحار به، ليس إلى المناطق القريبة مثل «مراغوجيب» أو «كاشويرا» فحسب، بل إلى السواحل الإفريقية البعيدة، رغم أنه لم يقد مركبا واحدا في حياته. كان ذلك في دمه ولم يكن عليه أن يتعلّم شيئا في موضوع الملاحة، فقد وُلد وهو يعرف كلّ شيء. وإذا كان هناك شخص واحد في هذه الرفقة الرائعة يتجاسر على الشكّ، فليعلن عن نفسه!.. كان يقول ذلك وهو يفرغ قارورة «الكّشاسا» جرعة بعد أخرى. بيد أنّ الرجال لا يشكّون في أقواله أبدا.

فما يقوله «كينكاس» أكيد وصحيح. كل من وُلد في البحر يعرف خباياه جيّداً، وليس في حاجة إلى أيّ شخص يكشف له عن أسرارِهِ.

لذلك تحديداً أطلق «كينكاس هدير الماء» قَسَمَهُ الرسميّ الشهير، لقد خَصَّ البحر وحده بشرف ساعته الأخيرة، ولحظاته النهائية. ولن يقبل أبداً بأن يُدفن في ثقب أرضيٍّ من ستّة أشبار. كلاًّ لن يحدث ذلك مُطلقاً! وعندما تحين ساعته، سيُشترط حريّة البحار.. حريّة الرحيل الذي لم يستطع تحقيقه أثناء حياته، ويفيب في الزرقة التي لا نهاية لها، مُتَجَسِّماً المخاطر والمغامرات الأكثر جسارة.

كان الكابتن «مانويل» الكهل الهادئ، أشجع سادة المراكب على الإطلاق يصغي إلى «كينكاس» ويَهْزُ رأسه موافقاً. وكان الآخرون، الذين علمتهم الحياة ألاّ يشكّوا في أيّ شيء، يجارونه في موافقته وهم يحتسون جرعات جديدة من «الكشاسا»، ويترنّمون بألحان القيثارة وهي تروي حكاية الليالي البحرية الساحرة، وإغواء «جانيتا»¹ القتال، بينما كان صوت «ذئب البحار المعجوز» أعلى من الجميع.

كيف مات، إذن، فجأة في غرفة بائسة عند «منحدر طوباو»؟ كان حدثاً لا يُصدّق! لذلك حين بلغ الخبر أصحاب المراكب لم يأخذوه على محمل الجدّ، فكثيراً ما كان «هدير الماء» ينصب لهم شراك مكائده الخفية ويوقعهم فيها، وليست هذه هي المزحة الأولى التي يخدعهم بها جميعاً.

ومن جهتهم حطّم المقامرون ألعايبهم الحماسيّة، بدءاً من «الزهر» وصولاً إلى «السبعة ونصف» غير مبالين بالريح والخسارة. ألم يكن «هدير الماء» زعيمهم بلا منازع؟

وفي المساء كان الظلام يهبط رويدا رويدا والحداد يلفّ بهيبته

(1) «جانيتا»: هو اسم لإحدى عرائس البحر التي كانت تستدرج الصيادين بمفاتها وتأخذهم بمد ذلك بعيداً إلى قصورها في أعماق البحار، فلا يعودون أبداً. (الترجم).

كل شيء، فسيطر الحزن العميق على الحانات والخمارات والدكاكين والمستودعات. وعلى كل مكان تُشرب فيه «الكشاسا». فلم يتناول أحد مشروباً إلا للتخفيف من حدة هذا الألم جزاء الخسارة التي لا يمكن تعويضها، خسارة الرجل الذي كان أمير السكيرين، فلا أحد كان يجروء على مجاراته في ذلك، ومهما كانت كمية الكحول التي يلقي بها في جوفه، فإنه لم يفقد توازنه أو صفاء ذهنه أبداً، بل على العكس كان يزداد رصانة وتألّقاً ويفقد متوقّد الذكاء. ولا أحد أيضاً كان يضاهيه خبرةً في أصناف الخمور ومصادرها، ولا معرفةً بالفُؤيرقات الطفيفة بين هذه الأصناف في اللون أو الطعم أو الرائحة.. وليس ذلك بالمعجيب فالرجل لم يذق طعم الماء منذ زمان طويل، وتحديدًا منذ ذلك اليوم الشهير الذي وُلدت فيه كُنية «هدير الماء».

طبعاً، لم يكن ما حدث في ذلك اليوم البعيد قصة خالدة أو حكاية مثيرة تستوجب أن نرويها لكم. ولكننا نقصّصها عليكم هنا لأنها الحادثة التي التصقت فيها كُنية «هدير الماء» باسم «كينكاس» نهائياً حتى غدا لا يُنطق إلا بها. وقد بدأت القصة حين دخل «كينكاس» في ذلك اليوم، حانة صغيرة في طرف السوق يديرها إسبانيّ طيّب يدعى «لوبيز»، وبما أنه زبون عريق فقد كان له الحق في أخذ ما يريد دون مساعدة النادل. تفرّس في المشروبات فرأى على الطاولة زجاجة صافية شفافة وكأنّها «كشاسا». صبّ لنفسه كأساً، وبصق لكي ينظّف فمه ويهيئ لها مكاناً لائقاً، ثم احتساها دفعة واحدة... وفجأة دوّت صرخة غير بشرية، عكّرت فورا صفاء ذلك الصباح الهادئ في جميع أنحاء السوق، وهزّت البار من أسسه العميقة، ثم تحوّلت إلى ما يشبه عواء حيوان جريح يحتضر، أو أنين رجل وقع طعمه غيلةً:

- مءءءءءءءء -

«يا له من إسبانيٍّ قذرٍ بأثس!»، كان الناس يقولون، راكضين في كل ناحية. «لا شك أن أحدهم يُقتل في الحانة الآن!». بينما راح الزبائن يتقهقون ضاحكين، لأنهم عرفوا أن مصدر الصوت هو «كينكاس» الذي لدغته الكحول المحضة الصافية، فاستغاث لإطفاء لهيبها الضاري.

وما لبثت نادرة «هدير الماء» أن انتشرت في سوق «بولورينيو» ومن «لارغو دو سات بورتس» إلى «ديك»، ومن «كلسادا» إلى «إيتابوا». والتصقت باسمه الشهير منذ ذلك كُنية «هدير الماء»، وبدء من تلك اللحظة التاريخية إلى الآن وهو يُدعى «كينكاس هدير الماء»، حتى أن «كيتاريا جاحظة العينين» كانت تهمس في فمه في اللحظات الحميمة الخالصة: «هدير الماء» وصوتها يترقرق من بين أسنانها العاضّة.

لقد انتشر خبر موته في كل مكان، وبلغ البيوت الفقيرة التي تسكنها المومسات الرخيصات، ويرتاذاها المتشردون والمتحيلون والمهربون الصغار، وفيها يجد البحارة ملاذا دافئا وعائلة أليفة ويختلسون بعض الساعات الهاربة من الحب. في ذلك الوقت الضائع من الليل، بعد أن أغلق سوق الجنس الحزين أبوابه، وذهبت النساء المتعبات للبحث عن قليل من المواساة، وصل خبر موت «كينكاس هدير الماء» فعمّت الكآبة المكان وانهمرت أكثر دموع الحزن لوعةً. كانت النساء يبكين وكأنهن فقدن قريبا، وأحسسن، فجأة، بأن لا حول لهنّ ولا قوة في بؤسهن. بعضهنّ أحصين أموالهنّ وقررن أن يشترين للميت أجمل أزهار «باهيا». فيما كانت «كيتاريا جاحظة العينين» ممزقة القلب، مُحاطة بأشدّ دموع التعاطف من رفيقات البيت، وكانت أصوات عويلها تتبّع درجات شارع «ساو ميغيل». وتتخطاه بعد ذلك لتتطفئ في ساحة «بولورينيو». لا شيء كان بإمكانه أن يخفّف عنها غير

انغماسها في الكحول، وهي تستحضر بين الجرعات والتحبب ذكرى ذلك العشيق التي لا تنسى، العشيق الأكثر حنانا وجنونا في الكون، صانع البهجة حيثما حلّ والعارف بكل شيء. وسرعان ما بدأت هذه الخصال تتعدّد بتوافد الزائرين، فتذكّرت النسوة عنايته الشديدة بابن «بينديتا» البالغ من العمر ثلاثة أشهر فقط عندما اضطرت إلى دخول المستشفى والبقاء هناك طوال شهر كامل، كان الطفل خلاله في عهدة «كينكاس» الذي اهتمّ به وكأنّه أمّه، فكان يقدم له الحليب، ويغيّر حفاظاته، ثمّ ينظّف مؤخرته، ويفسّله بعد ذلك. شيء واحد لم يكن بوسعه أن يفعله من أجل الطفل، وهو أن يرضعه من صدره!

ثمّ، ألم ينطلق بكلّ جسارة الأبطال منذ أيام فقط، وهو المعجوز السكران، لإغاثة «كلارا» الخادمة، حين أراد ابنا قحبة من إحدى العائلات اليسورة أن يحوّل وجهتها عنوةً في حانة «فيفيانا»؟... أم، وكم كان نديما ظريفا على المائدة الكبيرة ساعة الغداء!... من كان يستطيع أن يروي قصصا أكثر تسلية منه، أو أن يعزّي بصورة أفضل منه هموم الحبّ، وكأنّه أب حقيقيّ أو شقيق أكبر؟

وقبل أن يحلّ المساء ثانيةً تدرجت «كيتاريا جاحظة العينين» من على كرسيّها، فتّم نقلها إلى سريرها لتنام مع ذكرياتها، فيما قرّرت النسوة ملازمة منازلهنّ، وإغلاق أجسادهنّ في وجوه الرجال تلك الليلة، حدادا على الفقيد، تماما كما كنّ يفعلن ليلة الخميس المقدّس أو الجمعة المباركة!!

VIII

في آخر الغروب، عندما أضيئت أنوار المدينة وشرع الناس يغادرون أعمالهم، كان الأصدقاء الأربعة الأكثر قرباً من «كينكاس» وهم «الطائر الجميل» و«الزنجي المدهون الشعر» و«مارتان العريف» و«رشيقي الحركة» ينزلون منحدر «طوباو» في اتجاه غرفة الميت. وهنا لا بد من الإقرار إحقاقاً للحق بأنهم لم يكونوا سكارى على الإطلاق. صحيح أنهم شربوا بعض الجرعات عند سماع الخبر. ولكن الحمرة التي في عيونهم كانت جرّاء غزارة الدموع التي ذرفوها تحت وطأة الألم المريع، وهذا فقط ما تفسّره أصواتهم المتقطعة وخطواتهم المترنحة. إذ كيف يمكن الحفاظ على كامل الرصانة عندما يموت صديق السنوات الطويلة، وأعظم متشرد في «باهيا»؟ أمّا بالنسبة إلى القارورة التي أخفاها «العريف» تحت القميص فلا أحد بإمكانه تقديم برهان على وجودها.

في هذه اللحظات المتأرجحة بين العتمة والنور بدأت ملامح التعب تغزو وجه الميت. فاعتبرت «فتدا» الأمر طبيعياً، ولم تتفاجأ، فقد قضى العشيّة كلّها ضاحكاً مُتمتماً بأقذر الكلمات، هازئاً منها... وحتى عندما وصل «ليوناردو» والعم «إدواردو»، حوالي الخامسة بعد الظهر، فإنّه لم يتنازل عن وقاحته تلك، ويركن إلى الراحة ولو قليلاً، بل همس في وجه «ليوناردو»: «يا له من غبيّ». ثمّ حوّل مدافع سخريته صوب «إدواردو». ولكن، عندما خيمت ظلال الشفق على المدينة، لاذ «كينكاس» بالسكون التام. كما لو أنّه كان ينتظر شيئاً وتأخّر كثيراً. وكانت «فتدا» تحاول أن تمحو كلّ ما حدث داخل الغرفة من ذاكرتها، وتجاهد كي تقنع

نفسها بأن ما رآته وسمعتة ليس سوى تهيّؤات، فانخرطت في حديث ساخن مع زوجها وعمّها وعمّتها، مجتنبّة التحديق في وجه الميت مرّة أخرى.. فكلّ ما كانت تريده، هو مغادرة هذا المكان إلى منزلها لتتناول قرصاً منوّماً يساعدّها على بعض الراحة، لا سيّما حين عادت إليها الكوابيس مجدّداً، فرأت عينيّ «كينكاس» مرّةً تنظران إلى النافذة ومرةً إلى الباب؟

لم يصل الخبر إلى الأصدقاء الأربعة في الوقت نفسه. فبلغ أوّل من بلغ «الطائر الجميل»، هذا الرجل الذي دفن مواهبه المتعدّدة في وظيفة تافهة، إذ كان عليه أن يلازم كلّ يوم باب محلّ تجاريّ في «بايشا دو سباتيرو»، بمعطفه الأسود القذر، وسحنته المتلوّنة مثل مهرّج، وأن يمتدح مقابل مكافأة هزيلة بضائع المحلّ الرّائعة وأسعارها البخسة مقتنصاً الزبائن بأقواله الطريفة، دون أن يتردّد في جرّ بعضهم عنوةً إلى داخل المحلّ، حتّى إذا استولى عليه العطش جرّاء هذه المهنة اللعينة التي تجفّف البلعوم والصدر معاً، ففز إلى أقرب خمّارة وشرب قدحاً صغيراً يوقظ الرّوح ويعيد الصوت إلى رشده. وأثناء إحدى هذه الروحات والرجعات بلغه النبأ. كان وحشياً مثل لكمة ثقيلة في وسط الصدر، فتخلّخت الروح وضاع الصوت تماماً. وبصعوبة بالغة قفل راجعاً إلى المحلّ مكدود القلب مثقلاً بالعذاب، وأعلم البائع السوريّ بأن لا يُعوّل عليه في ما تبقى من ذلك النهار.

كان «الطائر الجميل» شاباً في مقتبل العمر تكفيه فرحة واحدة كي يحلّق في السماء، ويكفي حدث واحد مؤلم لكي يسقط من عليائه مكسور الجناح، فما بالك بصاعقة من هذا النوع! لذلك لم يستطع احتمال الصدمة منفرداً، وانتابه الإحساس بالحاجة الملحة إلى فريقه المهود المتشكّل من الأصدقاء الطيّبين القدامى، وسارع بالانضمام إليه.

في الحلقة، حول قوارب الصيد.. في سوق السبت الليلي في «أغوا دوس مينينوس».. في «سات بورتاس».. وفي عروض «الكابويرا»¹ على «طريق الحرية».. كانت الأمكنة كلها تفصّ بالسامرين، بخارة.. باعة.. ملاكمين.. رجال «بابابولاي»² لاعبي «كابويرا»، ومتحيلين، غرقوا جميعا في أحاديث لا تنتهي عن «كينكاس» بعد انتشار خبر وفاته. فاختلطت الحكايات بعربدات السكاري وحيل المقامرين وأصوات الصيادين تحت ضوء القمر.

كان لـ «كينكاس» كثير من المعجبين والأصدقاء، ولكن هؤلاء الأربعة لم يفارقوه يوما، فقد ظلّوا يلتقون به سنوات وسنوات. يجتمعون معا كل ليلة، لا يهتمهم إن كانوا مفلسين أو على ميسرة من أمرهم، يتصورون جوعا أو أرهقتهم النخمة. كانوا يتناوبون على دفع ثمن الشراب، متكاتفين مثل عصاية واحدة في السراء والضراء. ولكن، الآن فقط، تطفن «الطائر الجميل» إلى درجة هذا الترابط بينهم. فقد بدا له موت «كينكاس» بترأعضو من أعضاء الجسم الواحد، تماما كما لو بُترت له قدم أو استُصلت ذراع، أو كأن عينا فُقت من جسده، ولعلها العين الأهم، عين القلب التي ما فُتت تتحدث عنها الكاهنة «سينهورا» سيدة الحكمة الكاملة في ديانة «الكندمبلاي». لذا توجب عليهم أن يلتقوا جميعا، وأن يذهبوا لإلقاء نظرة الوداع على هذا الجزء المبتور من الجسد.

وبعد أن حسم أمره على هذا الرأي، خرج باحثا عن «المدهون»، وهو يقول في قرارة ذاته: «لا بد أن يكون في تلك الساعة في «لارغوداس سات بورتاس» يساعد الساعي الشهير لليانصيب السري لكي يجمع من

(1) «الكابويرا»: رقصة بهلوانية تقوم على محاكاة مشهد قتال يؤديه رجلان دون أن يلمس أحدهما الآخر. (المترجم).

(2) «رجال البابابولاي»: المرافون، أو السحرة في بعض اللغوس الأفرو-برازيلية. (المترجم).

الملاييم ما يدفع به ثَمَن «كشاسا» اللّيل". كان طول «المدهون» حوالي المترين، وحين ينفخ صدره يبدو ضخما وقويًا كالبناية الشاهقة. لذلك لم يكن باستطاعة أحد أن يقاومه عندما يكون غاضبا، ولحسن الحظّ لا تقتابه هذه الحالة إلا نادرا، لأنّ «المدهون» مرح بطبعه وطيب القلب. ومثلما توقّع، فقد عثر عليه في ساحة «سات بورتس». كان منزويا هناك في ركن من أركان السوق الصغير غارقا في دموعه، ويبدو زجاجة شبه فارغة. وقد تحلّقت حوله جوقة من شتّى أصناف المتشرّدين، يشاركونه الشرب ويردّدون تهديداته ونواحه. لقد كان على علم بالنبيا! فكّر «الطائر» في قرارة نفسه وهو يرى المشهد.

شرب «المدهون» جرعة، ومسح بكمّته دموعه المنهمرة على خديه، وصرخ في يأس:

- لقد مات، أبونا الرّوحى!

- أبونا الرّوحى!

ردّدت الجوقة بحسرة، بينما كانت زجاجة التعزية تنتقل من يد إلى أخرى، والدموع تتدفّق من عيني الزنجي، ويفدو عذابه في زحمة الأصداء المتردّدة أشدّ إيلاما.

- لقد مات.. رجل الخير!

- رجل الخير!

وبين حين وآخر، كانت شخصيّة جديدة تندمج في الجوقة دون أن تعرف سبب هذه المناحة أحيانا، فيناولها «المدهون» الزجاجة ويطلق صرخة رَجُل طُعن بخنجر:

- لقد كان طيبا..

- كان طيبا!

هكذا كان يردّد الآخرون، باستثناء الواقد الجديد الذي ينتظر

مذهولا أن يُفسّر له أحدهم سبب هذا النحيب المريع، وسرّ توزيع
«الكشاسا» مجّانا على الجميع.

- تكلم أنت أيضا أيها اللئيم...

ودون أن ينهض من مكانه، يمدّ «المدهون» ذراعه القويّة ويخضّ
الواقد الجديد على الحلقة وعيناه تقدحان شررا، ثمّ يكمل قائلا:

- لعلّك تريد الإقرار بأنّه لم يكن رجلا طيبا؟

حينها يتقدّم أحد الحضور بسرعة، تجنّبا لتعقيد الموقف، ويشرح
الأمر:

- إنّ «كينكاس هدير الماء» الذي مات.

- كينكاس؟... حقّا؟.. لقد كان رجلا لطيفا...

هكذا كان يقول الواقد الغريب، ثمّ يردّد مع الجوقة.. وقد ألمّ به
الذعر أكثر من الاقتناع.

- زجاجة أخرى!

يطالب بذلك «المدهون» وهو ينتحب.

فيقفز صبيّ رشيق إلى الشارع، ويركض مسرعا إلى الخمّارة
المجاورة:

- «المدهون» يريد زجاجة أخرى.

كان خبر موت «كينكاس» يرفع من استهلاك «الكشاسا»، في كل
مكان يصل إليه. وكان «الطائر الجميل» يراقب المشهد من بعيد
متعجّبا من وصول الخبر بسرعة أكبر منه. فانتبه إليه الزنجي وعلى
النور نهض واقفا وهو يرفع ذراعيه إلى السماء، وعوى متمايلا:

- أيّها «الطائر الجميل»، يا أخي العزيز، لقد مات أبونا الرّوحيّ.

- أبونا الرّوحيّ.

رددت الجوقة

- أغلقوا أفواهكم القذرة، لعنة الله عليكم، ودعوني أعانق أخي
«الطائر الجميل».

تم تنفيذ عادات التربية الحسنة التي يتحلّى بها أهل مدينة
«باهيا»، من الأشد فقرًا إلى الأكثر تحضرًا. فسكتت الأفواه. ورفرف
طرف معطف «الطائر الجميل» في الريح بينما انهمرت الدموع غزيرة
من عينيه، واتخذت لنفسها مسلكًا على خده المبقّع بالألوان. تعانق
الرجلان ثلاث مرّات والتحم نحيبهما. ثم قبض «الطائر الجميل»
على زجاجة التعزية عساها تخفّف من عذابه، ولكن دون جدوى.
- لقد انطفأ نور الليل...

- نور الليل....

فقال «الطائر الجميل» لصديقه:

- لنذهب في طلب بقية الرفاق، وبعد ذلك نلقي عليه نظرة الوداع.
لم يكن «مارتان العريف» ثالث عناصر «الشلة» ليوحد إلا في ثلاثة
أماكن دون سواها. فهو آما نائم في بيت «كاريل» بعد ليلة حبّ عاصفة.
وآما في مدخل السوق يثرثر مع بعض الأصدقاء. أو يقامر بالورق في
سوق «أغوا دوس مينينوس». فمئذ أن ترك «العريف» الجيش قبل
خمس عشرة سنة خلت لم يكرّس حياته لغير هذه المهمّات الثلاث:
الحبّ والثروة والقمار. ولم يقم أبدا بعمل آخر معروف، فالنساء
والحمقى يمنحونه ما يكفي من المال لكي يعيش. أما العمل بعد خلع
البذلة العسكرية المجيدة فهو في نظره المذلة بعينها، لا سيّما بالنسبة
إلى خلاسيّ مثله، فوسامته ونبوغه في علم القمار بأصابعه الخفيفة
تكفلا وحدهما بجعله شخصيّة محترمة، دون الحديث عن مهارته
الفائقة في العزف على القيثارة.

في تلك الليلة، كان «العريف» في سوق «أغوا دوس مينينوس»، يتفنّن

في ممارسة مواهبه في لعب الورق، مثيرا موجة من المرح بين الجمهور المتعلق حول اللعبة، وكان أغلبه من سائقي الحافلات الصغيرة والشاحنات، إضافة إلى مُراهقين مُترَبِّصين يشرف على تكوينهما وهما يخطوان الخطوات الأولى على طريق الحياة الصعب، وبعض الباعة الذين كان يساعدهم على صرف نسبة من أرباح مبيعاتهم اليومية. وهكذا، إذن، كان يقوم بأنبل المهام. بل إن مهارته الفائقة بلغت حدًا من التفنن تضيق الأذهان عن استيعابه في بعض الأحيان، والّا فكيف يمكن أن نفسّر سلوك أحد الباعة حين لم يشارك الجميع حماسهم وغمغم من بين أسنانه قائلا: «إنما التوفيق الدائم علامة على الفش». عندها رفع «العريف» عينيه الزرقاوين بكلّ براءة وقدم حزمة الأوراق إلى حضرة الناقد المعترض، مقترحا عليه أن يتولّى هو المهمة، إذا أراد، ولا بأس إن أظهر البراعة اللازمة، أو إذا حالفه الحظ... ودون أن ينتظر منه جوابا عاجله بضربة فهوى كالكيس على الأرض. لم يكن «العريف» يقبل مطلقا أيّ تلميح من التلميحات الماكرة التي تخصّ نزاهته، وهو بصفته عسكريًا سابقا شديد الحساسية إزاء أقلّ إشارة تشكيك في شرفه، ومن شدّة حساسيته هذه نزع حزامه الجلديّ استعدادا لردع أيّ هجوم حين تحتدم المعركة. وسرعان ما بلغت حماسة المراهقين ذروتها، وراح السائقون يفركون أكفهم محرّضين، فلا شيء أجمل من صراع جيّد، ولا سيّما حين يكون مجّانياً وغير مُدرج ضمن برنامج السهرة.

في تلك اللحظة بالذات.. اللحظة المفتوحة على كلّ الاحتمالات ولا يعمّها غير السكون الذي يسبق العاصفة، ظهر «الطائر الجميل» و«المدّهون» حاملين معهما الخبر المأسويّ وزجاجة «كشاسا» تحتضر. ومن مكان بعيد صاحبا بـ «العريف»:

- لقد مات! لقد مات!

حدّق إليهما «العريف» بعينيه الثاقبتين، ثمّ تقرّس ملياً في الزجاجة المحتضرة، وراح يُدير في رأسه معادلة دقيقة: «إذا كان قد شرباً زجاجة كاملة، فلا بدّ أن يكون الأمر على درجة عالية من الأهمية، وهناك احتمالان لا ثالث لهما، فإمّا أن يكون «المدهون» قد ربح في اليانصيب أو أنّ «الطائر الجميل» قد وقع في الحبّ».

وفي الواقع لطالما حدث ذلك، فـ «الطائر الجميل» رومنتيقي غير قابل للشفاء، تحرّكه عواطفه وتعبث به حتّى تخاله مجنوناً حقاً، لا سيّما حين تنتابه نوبات العشق والهيام المتواترة، ففي كلّ مرّة تبدأ علاقته بحبّ جارف يجعله يحلّق فوق الفيوم، وبعد وقت قصير تنتهي، وينتهي معها محطّم القلب، فيلسوفاً بائساً يُثير الحزن والشفقة.

- هناك شخص ما قد مات .

قال أحد السائقين.

فمدّ «العريف» أذنه وأرهف السّمع:

- لقد مات! لقد مات!

واقترب الرجلان وقد أثقل كاهلما الحزن ووطأة الخبر المشؤوم بعد أن ظلاً يحملانه ويطوفان به من «سيّتي بورتس» إلى «مينينوس» مروراً بحوض القوارب، وبيت «كاراميل». كان ينقلان النبأ إلى عدد كبير من الناس، بائنين اللوعة والحزن في كلّ مكان مرّاً به، حتّى أنّ كلّ شخص يخلفانه في الطريق يسارع فوراً إلى فتح أوّل زجاجة تصادفه من الكحول. وليس ذنبهما، هما الفارقين في الحزن والحداد، أن يعترضهما هذا العدد الكبير من النّاس، أو أن يكون لـ «كينكاس» هذا الحشد من المعارف والأصدقاء. وليس ذنبهما أن تعمّ أصوات فتح القوارير في مدينة «باهيا» كلّها - أو ذلك ما خيّل إليهما - على خلاف

المُعْتَاد. فليس كل يوم يموت «كينكاس هدير الماء».

ظلّ «العريف» يتفرّس في القادمين بفضول ما انفك يزدد كلما اقتربا، بينما كان ذهنه يمحو من حوله كل شيء: حلقة المقامرين، والشجار الذي كاد يبدؤه، والأوراق التي بقيت عالقة بيده... إنهما بيكيان، لم يعد عنده شك في ذلك. ثم وصله صوت «المدهون» مختفيا: - لقد مات... أت أب... ونا...

- يسوع المسيح أم محافظ المدينة؟

سأل أحد الصبية بأسلوب ساخر، ولكن يد «العريف» رفعته في الهواء ثم ألقته أرضا. وعندها فهم الجميع أن المسألة جدية. ورفع «الطائر الجميل» الزجاجة قائلا: - لقد مات «هدير الماء»!

أفلتت أوراق اللعب من يد «العريف» وتناثرت على الأرض. فتأكد خصمه الحذر من صحّة ظنونه عندما رأى ضمنها حشدا من «الأصّات» و«السيدات». ولكنّ أذنه التقطت اسم «هدير الماء»، فأثر السلام والصمت إكراما لذكرى الفقيد. أمّا «العريف» فقد قبض على زجاجة «الطائر الجميل» وأفرغ ما بقي منها في جوفه دفعة واحدة، ثمّ رماها بعيدا. وراح يحدّق طويلا إلى السوق، وإلى سائقي الشاحنات والحافلات الصغيرة على الطريق، إلى الزوارق في البحر، وإلى الغادين والرائحين من الناس. انتابه فجأة الإحساس بالفراغ الكلي، فلم يعد يسمع شيئا بما في ذلك زقزقة العصافير في أقفاص بائع قريب. لم يكن «العريف» من الرجال الذين يهدرون الدموع، فالمسكري لا يبكي أبدا، حتّى وإن خلع بزّته المجيدة، ولكنّ عينيه ضاقتا وظلّتا جامدتين، بينما فقد صوته كل نبرة تبجّج وغدا كصوت الطّفل الصغير وهو يسأل:

- كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

ثم انضم إلى صديقيه بعد أن أعاد أوراق اللّعب إلى علبتها الكرتونية ووضعها في جيبه. لم يبق لهم الآن سوى العثور على «رشيّق الحركة» ولم يكن له مكان معلوم ثابت يمكن ملاقاته فيه طوال الأسبوع إلاّ مساء الخميس أو الأحد في «فالدیمار» على «طريق الحرّية» حيث كان يشترك بصورة دائمة في مباريات «الكابويرا». وفي ما تبقى من أيام الأسبوع، كان يصطاد الفئران والضفادع وبيعهما للمختبرات لاستخدامها في البحوث الطّبيّة والتجارب العلميّة. وقد حظي بفضل هذا النشاط بإعجاب أصدقائه، وكان رأيّه من أكثر الآراء جدارة بالاحترام. ألم يكن هو أيضا عالما إلى حدّ ما؟ ألا يتحدث دائما مع الدكاترة؟ ألم يكن يعرف مثلهم كثيرا من الكلمات الصعبة؟

وبعد أن ساروا طويلا وشربوا في طريقهم جرعات كثيرة، تمكّنوا أخيرا من العثور عليه ملفوفا في سترته الواسعة كما لو أنه يئنّ من البرد، منكفئا على نفسه يدمدم وحيدا. لقد بلغه الخبر بطريقة ما، هو الآخر، وقد كان بدوره يبحث عن أصدقائه وعندما رأهم دسّ يده في أحد جيوبه، «ربّما للبحث عن منديل يمسح به دموعه» هكذا خمن «الطائر الجميل». ولكنّ «رشيّق الحركة» سحب من أعماق جيبه ضفدعة صغيرة خضراء برّاقة كالزمرّد.

- لقد احتفظت بها لـ«كينكاس»، فلم يسبق أن عثرت يوما على ضفدعة واحدة أكثر منها جمالا.

IX

عندما بلغ الأصدقاء الأربعة باب الغرفة، مدَّ «رشيق الحركة» يده وعلى راحتها كانت الضفدعة ترتاح ساكنة بعينيهما الصغيرتين الجاحظتين. ظلّوا واقفين عند الباب واحداً إثر آخر. وكان «المدھون» آخرهم، فمدَّ رقبته إلى الأمام لكي يرى جيّداً، في حين ارتبك «رشيق الحركة» من الخجل فأخفى الحيوان في جيبه.

قطع أفراد العائلة حديثهم الحميم، وحدثوا جميعاً إلى الباب: أربعة أزواج من العيون.. جاءت لتقديم العزاء.. «هذا ما كان ينقصنا» قالت «هندا» مغممة... بينما تقدّم «العريض» الذي لم يكن يفوقه أحد في آداب المعاملة سوى «كينكاس»، ثم نزع قبّعته عن رأسه القدر، وحيّا الأشخاص الحاضرين:

- مساء الخير، سيّداتي سادتي، لقد جئنا لنلقي عليه نظرة الوداع.. وبكلّ رشاقة خطا خطوة إلى الأمام، فالحق به الآخرون، بينما ابتعد أفراد العائلة، وأحاط القادمون الجدد بالتأبوت.

في البداية شعر «الطائر الجميل» بأنّ في الأمر خدعةً، فلا يمكن أن يكون هذا الميّت «كينكاس هدير الماء»! ولكنّه تعرّف إليه بصعوبة بعد ذلك من خلال ابتسامته الساخرة.. وأصيب الأصدقاء الأربعة بالذهول.. إذ لم يتوقّعوا أبداً أن يروا «كينكاس» نظيفاً وأنيقاً في مظهره وثيابه كما يروونه الآن. وتبخّرت نشوة السكر من رؤوسهم، وكأنّها بفعل ساحر. فوجدوا العائلة، ولاسيّما النساء، جعلهم مرتبكين خجولين، لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا أين يضعون أيديهم أو كيف

يتصرفون في حضرة الميت، حتى أن «الطائر الجميل» بدا مضحكا بوجهه المبتقع بالأحمر، ومعطفه الواسع المهترئ، وهو ينظر إلى رفاقه متوسلا الخروج من هذه الغرفة في أسرع وقت ممكن... بينما كان «العريف» مترددا مثل جنرال يدقق في قوى العدو عشية المعركة. ووصل الأمر بـ «رشيقي الحركة» إلى القفز خطوة نحو الباب. ولم يحافظ على رباطة الجأش غير «المدهون» الذي مال بمنقه الطويل صوب الميت، ولم تخامر له لحظة شك واحدة في أن المرحوم يبتسم له، فابتسم له الزنجي بدوره، وظلّ قريبا منه، فما من قوة بشرية باستطاعتها أن تنزعه من هناك، من قرب وسادة أبيه الروحي «كينكاس». ثم أمسك «رشيقي الحركة» من ذراعه، وحذج «الطائر الجميل» بنظرة مشوية بالاحتقار، ففهم «العريف» الإجابة فورا: «أجل.. لا ينبغي للجندي أن يفر من ساحة المعركة»، وابتعد الأربعة عن التابوت وهم يبحثون عن موضع داخل الغرفة.

ساد الجو صمت ثقيل قسّم الغرفة والحاضرين معا، ففي جانب كانت هناك عائلة «جواكيم سواريس دا كونيا»؛ الابنة والصهر والإخوة. وفي الجانب الآخر كان أصدقاء «كينكاس هدير الماء». في حين بقي المائل في التابوت واحدا، يطلّ بابتسامته الساخرة على أصدقائه هو «كينكاس»، ويُسّخ بنظافته وأناقة ثيابه على أفراد عائلته هو «جواكيم».

دس «رشيقي الحركة» يده في جيبه وجسّ الضفدعة التي كان يريد أن يهديها إلى «كينكاس» فبدت له ترتعد من الخوف.

وتقدّم أفراد العائلة من التابوت، بينما واصل الأصدقاء تراجعهم إلى الوراء، وكأنّ الجميع في رقصة «باليه» متوازنة الحركات... وأطلقت «فندا» صوب أبيها نظرة تأنيب واحتقار: «حتى في مهماته

ما زال يميل إلى هذه «الشَّلَّة»... يبدو أنه كان ينتظرهم دون غيرهم. ولم يكن صمته الغريب في عصر هذا اليوم إلا بسبب انزعاجه من تأخرهم. لقد ظنَّت نفسها انتصرت عليه أخيرا وأرغمته على إقفال فمه القذر بفضل مقاومتها الصَّامِة وكبريائها الكبير، لكنَّ ابتسامته الساخرة سرعان ما طفت على وجهه من جديد، وطفت معها كلماته البذيئة وغدا واضحا أنَّ الجثة التي أمامها هي جثة «كينكاس هدير الماء». ولولا ذكرى أمِّها «أوتاسيليا» المهانة، لتخلَّت عن هذه المعركة منذ البداية، وتركت هذه الجثة الحقيرة في هذا الحيِّ الحقيقير.. لولاها لَأَعَادَت التابوت إلى وكالة الدفن، وباعت الملابس الفاخرة بنصف ثمنها إلى أوَّل بائع متجول يصادفها على الطريق».

صار الصَّمْتُ غير محتمل، فالتفت «ليوناردو» إلى زوجته وعمَّته معا: - أعتقد أنَّ الوقت قد حان لتذهبا الآن. فبعد قليل سيحلّ الليل. قبل دقائق، كانت «فتدا» لا تفكّر إلا في العودة إلى البيت لترتاح... لكنّها لم تكن من النساء اللواتي يقبلن بالإذعان لأوامر الآخرين بيُسْر، لذلك فقد أجابت وهي تصرّ على أسنانها: - بعد قليل.

جلس «المدهون» على الأرض مُسندا رأسه إلى الجدار، فركله «رشيق الحركة» بقدمه، إذ ليس من اللائق اتِّخاذ مثل هذا الوضع أمام عائلة الميت، في حين ظلّ «الطائر الجميل» يعلن باستمرار عن رغبته في الذَّهاب، لكنّه سرعان ما لاذ بالصَّمْتُ مرّة أخرى تحت سطوة نظرة «العريف» القاتلة. أمّا «المدهون» فلم يُعر الحاضرين أيَّ اهتمام، بل دفع بيده قَدَمَ صديقه المزعجة، وانخرط مباشرة في النحيب:

- مسكين «كينكاس»! لقد كان أبانا الرُّوحي...

كانت هذه الجملة لكمة قويّة في بطن «فتدا»، وصفعة على خدّ

«ليوناردو»، وبصقةً على وجه «إدواردو». ولم يسلم من أذاها غير العمّة «ماروكاس» التي انفجرت بالضحك وهي جالسة على الكرسيّ الوحيد المتنازع عليه في الغرفة، وشحمها كلّ يهتزّ من شدة هذا الزلزال.

- أم، كم هذا مضحك!

وسرعان ما نقلت العمّة «ماروكاس» هذه العدوى إلى «المدهون» نفسه، فتحول من البكاء إلى الضحك، لكنّ انفجار ضحكة هذا الزنجي كان أكثر إخافة من بكائه، بل كان كقص الرعد في الغرفة. والأسوأ من ذلك أنّ «فتدا» سمعت، دون سواها، ضحكة أخرى متخفية خلف ضحكة «المدهون»، وهي ضحكة «كينكاس» الذي كان يتلّهي بصورة مجنونة.

- ماذا تفنين بهذه الزويمة التي أثرتها؟

قالت «فتدا» مخاطبة عمّتها بنبرة جافة قضت على كلّ محصول الوثام الناشئ بينهما حديثاً.

فنهضت العمّة «ماروكاس» وخطت بضع خطوات في الغرفة تحت رقابة «المدهون» الذي كان يجسّها بنظراته من رأسها إلى أخمص قدميها، فهو مفتون بهذا الصنف المكتنز من النساء. صحيح أنّها مسنة بعض الشيء، ولكنّها ضخمة وطويلة. وهذا ما يعشقه في المرأة دون سواه. فلم يكن يحبّ مطلقاً أولئك النسوة النحيفات اللواتي لا يستطيع الامتلاء بمعانقتهنّ جيّداً. أم، لو أنّه يلتقي بهذه السيّدة على الشاطئ، فسوف يقومان دون شكّ بمصائب ما بعدها مصائب. وهكذا كانت بعض النظرات الخبيرة من عينيه، كافية لتحديد نوعيّتها بسرعة. أمّا هي، حبيبته «ماروكاس»، فسرعان ما شعرت بالتعب، وتوتّرت أعصابها فأعلنت عن رغبتها في العودة إلى البيت. لم تُعرها «فتدا» أيّ اهتمام وظلّت جالسة على الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه العمّة، قريباً من

التابوت وكأنها تحرس كنزا. فقال «إدواردو»:

- كلنا متعبون...

وأردف، «ليوناردو» متوجّها إليهما معا:

- ومن الأفضل أن تذهبا الآن..

كان متخوّفا من شارع «طوباو» في الساعات المتأخرة من الليل، فبعد قليل حين تختفي حركة التجار تماما وتُغفل الدكاكين، سيمتلئ بالعاهرات واللصوص ويعمل كل واحد على اصطياد زبائنه من المازّة. فتدخل «العريف» بكل أدب ولباقة معلنا عن رغبته في التعاون مع العائلة:

- إذا كان سيّداتي سادتي يرغبون في العودة إلى البيت للراحة والنوم قليلا، فإننا سنتكفل بالعناية به.

كان «إدواردو» يعرف جيّدا أنّ ذلك لا يمكن أن يحدث: فمن المستحيل ترك الجثمان وحيدا مع أولئك البشر دون إبقاء فرد من العائلة. ولكن هل يقبل الاقتراح؟ أفلا كم سيطول السهر على هذه الجثة البائسة.. وهو الذي يقضي اليوم كله في دكانه، يركض إلى هذه الجهة أو تلك، لخدمة الزبائن أو لإصدار الأوامر لعمّاله المعتوهين.. من الطبيعي أن يذهب إلى النوم مبكرا ليستيقظ، كمادته، عند الفجر، فيبدأ يوما جديدا من العمل الشاق، لا يخلد منه إلى الراحة إلا مساء، حين يعود منهكا من الدكان فيأخذ حماما، ويتعشى بعد ذلك، ثم يسترخي على كرسية الطويل ويمدّ ساقيه إلى أن يأخذه النعاس.. أي شقيق لعين هذا؟ لم ينل منه غير المتاعب. طيلة عشر سنوات وهو يتفنن في إزعاجه بمصيبة تلو أخرى، وما هو يرغمه في هذه الليلة على البقاء واقفا وليس في معدته غير بعض السندويشات الهزيلة لا حول فيها ولا قوّة. لماذا لا يتركه رفقة أصدقائه، بل رفقة هذه الشرذمة من المتشرّدين

الذين كان مهووسا بصحبتهم سنوات وسنوات؟ ماذا يفعل هنا في حظيرة الخنازير هذه وعشّ الفئران؟ وماذا تفعل «ماروكاس» و«فندا» و«ليوناردو»؟ لم تكن لديه الشجاعة الكافية للإفصاح عن آرائه تلك: «فندا» وقحة جدًا، ولن تتوانى في تذكره بالمناسبات العديدة التي احتاج فيها، هو «إدواردو» نفسه، إلى أموال «كينكاس». لذلك لم ينبس بحرف و اكتفى بالنظر إلى «العريف» بنوع من العطف والاهتمام.

وبعد عدة محاولات فاشلة في إقناع «المدهون» بالنهوض عن الكرسي استطاع «رشيح الحركة» أن يجلس أخيرًا. كان يريد أن يضع الضفدعة على راحة يده ويلعب معها، فلم يسبق له أن رأى من قبل ضفدعة بمثل جمالها، بينما راح «الطائر الجميل» الذي قضى قسما من طفولته في ملجأ أيتام تحت إدارة القساوسة يفتش في ذاكرته التلّفة عن صلاة كاملة. فقد كان يسمع دائما من يقول إنّ الموتى في حاجة إلى الصلوات.. والكهنة. ولكن هل جاء القس؟ أم أنه سيأتي غدا فقط؟ دغدغ السؤال لسانه فلم يتمالك نفسه عن طرحه:

- هل جاء القس؟

- غدا صباحا...

أجابت «ماروكاس».

فرمقتها «فندا» بنظرة حادة من عينيها. لماذا تواصل التحدّث مع هذه الحثالة؟ لكنّها سرعان ما تمكّنت من فرض مناخ من الخشوع داخل الغرفة فانتابها الإحساس بأنّها أفضل حالا الآن، لا سيّما بعد أن طردت المشردين الأربعة إلى زاوية الغرفة وأطبقت عليهم الصمت. ومهما يكن، فلا هي ولا العمّة «ماروكاس» بوسمهما قضاء الليلة هنا. في البداية كان أملها كبيرا في مغادرة أصدقاء كينكاس الوقحين مبكرا، لاسيّما في ظلّ غياب أي نوع من أنواع الطعام والشراب. ولكنّ أملها

سرعان ما نهافت أمام إصرارهم على البقاء إلى جانب الميت... لم تكن تفهم سرّ بقائهم المريب، والأكد أن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب صداقتهم للميت، فهذا الصنف من البشر لا يعرف معنى الوفاء ولا الصداقة. وفي كل الأحوال فإنّ الحضور المزعج لأولئك الأصدقاء ليس له أية أهمية ماداموا لن يحضروا الدفن في اليوم التالي. ففي الصباح، و أثناء عودتها من أجل مراسم الدفن، ستعيد وحدها إدارة الأحداث من جديد، ولن يكون في تشييع الجثمان أحد غير أفراد العائلة. وحينها فقط يمكنها أن تراقب عن كثب «جواكيم سواريس دا كونيا» وهو يُشَيَّع إلى مثواه الأخير بطريقة متواضعة ولكنها شريفة. نهضت من الكرسي ونادت العمّة «ماروكاس»:

- هيا بنا.. لقد حان الوقت.

ثمّ التفتت إلى «ليوناردو»:

- لا تتأخر كثيرا، فلا يُعقل أن تُضيع كامل الوقت في هذا المكان، وقد سبق للعمّ «إدواردو» أن وعدنا بقضاء الليلة كلّها هنا.

أوما «إدواردو» برأسه علامة على الموافقة، وسارع باحتلال الكرسيّ الشاغر، بعد أن وقف «ليوناردو» لمرافقتهم إلى محطة الترام. وجازف «العريف» بالقول: «ليلة سعيدة سيّداتي...»، فلم يصله غير شخصير «المدهون» المضزع، فيما ضوء الشمعتين الخافت يجاهد وحيدا لإضاءة الغرفة.

X

في العاشرة ليلاً استيقظ «ليوناردو» متألماً من الجلوس على صفيحة «الكيروزين» الفارغة، واقترب من الشمعتين ليرى الساعة. ثم أيقظ «إدواردو» الذي كان ينفو على كرسيه المزعج بفم مفتوح:
- أنا ذاهب الآن. سأعود في السادسة صباحاً لأتيح لك الوقت للعودة إلى البيت وتغيير ملابسك.

مدّ «إدواردو» ساقه وفكر في سريرته، وهو يشعر بألم في عنقه، بينما كان «الطائر الجميل» و«رشيقي الحركة» و«مارتان العريف» منكفئين في إحدى زوايا الغرفة، يواصلون بصوت منخفض نقاشاً حاراً حول تركة المرحوم: من منهم سيخلف «كينكاس» في التسلسل إلى قلب «كيتاريا جاحظة العينين» والترتب على سريرها؟ وقد كان «العريف» في تلك اللحظة يندد بأنانية أصدقائه المثيرة... وهو غير موافق على شطب اسمه من قائمة الورثة لمجرد أن له قلباً رقيقاً وقواماً رشيماً مثل الزنجية الصغيرة «كارميلا». حدّق «إدواردو» إلى هذه الشرذمة الضالة، فيما كان وقع أقدام «ليوناردو» يتلاشى في الشارع شيئاً فشيئاً... فتوقف النقاش. وابتسم العريف ملاطفاً «إدواردو» الذي كان ينظر بحسد إلى «المدهون» وهو يغط في أحلى نعاس. أحس بالانزعاج مجدداً على الكرسي فوضع قدميه على صفيحة «الكيروزين»، والألم ما يزال مُتَشَبِّثاً بعنقه. لم يعد «رشيقي الحركة» يتمالك نفسه، فسحب الضفدعة من جيبه ووضعها أرضاً، فقفزت على الفور. يا لها من ضفدعة مسلية! لقد بدت مثل شبح طليق في الغرفة.

لم يكن «إدواردو» قادرا على النوم. فنظر إلى الميت الساكن في التابوت. كان الوحيد الذي ينعم بالراحة كما ينبغي... فما الذي جاء به إلى هنا بحق الشيطان؟ ما الذي جعله هو «إدواردو» كلب حراسة في هذا المكان؟ ألا يكفي أنه سيحضر الدفن؟ ألم يدفع جزءا من المصاريف؟ لقد قام بأكثر من واجبه كأخ سابق، خصوصا إذا علمنا أي نوع من الإخوة كان «كينكاس».. كان فضيحة وطاعونا..

نهض، حرك ساقيه وذراعيه، وفتح فمه ليتأهب. فخبأ «رشيقي الحركة» الضفدعة الخضراء في يده، فيما واصل «الطائر الجميل» التفكير في «كيتاريا جاحظة العينين». إنها امرأة عظيم....

ووقف «إدواردو» أمامهم:

- دعوني أسألكم شيئا...

واتخذ «العريف» العالم النفسي بالفطرة وقفة التأهب:

- تحت أوامرك سيدي القائد!

فمن يدري.. لعل التاجر يريد أن يرسله ليشتري شرابا يساعدهم على قضاء الليلة الطويلة؟

- هل أنتم عازمون على قضاء الليلة كلها هنا؟

- قرب «كينكاس»؟ أجل سيدي. لقد كان صديقنا.

- إذن، سأذهب إلى البيت لأرتاح قليلا.

ودس يده في جيبه وسحب منه ورقة مائية، قبضت عليها على الفور

نظرات «العريف» و«الطائر الجميل» و«رشيقي الحركة»...

- هي لكم لتشتروا بها بعض السندويشات. ولكن لا تتركوه وحيدا

ولو دقيقة واحدة. هممم!

- لا تقلق أبدا... سنظل برفقته..

واستيقظ «المدھون» أول ما تناهت إلى أنفه رائحة «الكشاسا».

قبل ذلك أشعل «الطائر الجميل» و«رشيقي الحركة» سيجارة، وتناول «العريف» سيجارا واحدا من السجائر السوداء القوية التي تُباع بخمسين سنتا، ولا يعرف قيمتها إلا المدخنون الحقيقيون، ونفث دخانه القوي على أنف الزنجي دون أن يجدي نفعا في إيقاضه. ولكن، ما إن فتخوا الزجاجاة (وهي الزجاجاة الأولى التي جرى نقاش كبير حولها، وأدعت العائلة بأن «العريف» حملها معه وأخفاها تحت القميص) حتى فتح «المدهون» عينيه طالبا جرعة.

أيقظت الجرعات الأولى في الأصدقاء الأربعة ميلهم الجارف إلى النقد، فاتهموا عائلة «كينكاس» الفارقة في شحم الغرور، بالحقارة والبخل. إذ لم تقم إلا بنصف المطلوب في كل شيء. فأين هي الكراسي ليجلس عليها الزوار؟ وأين هي المأكّل والمشروبات المألوفة حتى في سهرات أفقر الأموات؟ لقد خاض «العريف» تجربة طويلة في حضور المآتم، ولا يذكر أنه رأى في حياته سهرة كهذه.. حتى في مآتم المعدمين من أفقر الناس، كانت تُقدّم القهوة وجرعة من «الكشاسا» على الأقل... بصراحة، «كينكاس» لا يستحق مثل هذه المعاملة! ولماذا هذا التعالي الزائف من قبل العائلة إذا كانت متفنّنة في إذلال الميت وفي عدم احترام أصدقائه بتقديم أي شيء من الطعام أو الشراب لهم؟

خرج «الطائر الجميل» و«رشيقي الحركة» بحثا عن الكراسي والطعام. وراح «العريف» يفكر في طريقة لتنظيم السهرة بأقل ما يمكن من اللياقة الزائفة، ثم اعتلى كرسيه وبدأ إصدار الأوامر: صفائح فارغة وزجاجات... بينما كان «المدهون» الجالس على صفيحة «الكيروزين» يومئ برأسه مُصادقا على هذه القرارات.

لا بد من الاعتراف في ما يتعلق بالعثمان في حدّ ذاته، بأنّ العائلة قامت باللازم: ملابس جديدة. حذاء جديد. أناقاة وشموع جميلة

مثل شموع الكنيسة. ولكن أين الزهور؟ هل سمع أحدكم بجثمان دون زهور؟ وانفجر «المدهون»:

- يا أبناء الزنى، هذا سيّد حقيقي ومرحوم جميل.

ابتسم «كينكاس» لهذا الإطراء، فبادله الزنجي ابتساما بابتسام:

- هذا صحيح، يا أبي

قالها متأثرا وهو يتقرأ أضلع «كينكاس» بإصبعه كما كان يفعل عادة حين يسمع نكتة جيّدة منه.

عاد «الطائر الجميل» و«رشيقي الحركة» ببعض الصفائح الفارغة وقطعة من السجق وما تيسّر من زجاجات «الكشاسا»... وحينها تحلق الجميع في شبه دائرة حول الميّت، بعد أن اقترح «الطائر الجميل» على أصدقائه أن يتلوا معا صلاة «أبانا الذي في السموات» مؤكّداً أنّه يحفظ نصّ الصلاة وبإمكانه أن يتذكّره كاملاً.. فاستجابوا لرغبته، ولكن دون اقتناع، فلم يكن الأمر يبدو لهم بالسهولة التي يتحدّث بها.. ومن جهته أعلن «المدهون» أنّه يعرف بعض الأدعية الخاصّة بـ«أوشوم»¹ و«أوشالا»²، ولكنّ ذاكرته الدينيّة لا تُسعفه بها الآن. أمّا «رشيقي الحركة» فلم يتل صلاة واحدة منذ ثلاثين سنة، في حين كان «العريف» يعتقد أنّ الصلوات والكنائس علامات ضعف، لا تتلاءم مع الحياة العسكرية. ومع ذلك فقد حاولوا التلاوة: بدأ «الطائر الجميل» يتلو الصلاة، وعوض أن يردّد الآخرون ما يقوله في شكل جوقة أخذ كلّ واحد منهم ينشد منفرداً حتّى استنفد «الجميل» طاقته على الصبر، وصرخ بعصبية وهو جالس على ركبتيه وجبهته نحو الأرض في وضعيّة المتضرّع:

(1) «أوشوم»: إله الماء المذب في الديانة الأفرو-برازيلية.

(2) «أوشالا»: إله أكبر من «أوشوم»، ويتمثّل في بعض الأحيان في صورة يسوع المسيح.

- حقًا، إنكم قطع من الحمير...

فقال «العريف» مُهدِّثًا من غضب صديقه:

- إنه ناجم عن النقص في التدريب... ولكننا فعلنا شيئًا ما على الأقل. والباقي يكمله القسّ غدا.

من جهته بدا «كينكاس» لا مُباليا بالصلاة... لعله كان يشعر بالحرّ في تلك السُترة السمكة.. تفحص «المدّهون» صديقه وهو يفكر في ضرورة القيام بأيّ شيء لإسماعه فتراويل الصلاة لم تكن صحيحة على ما يبدو، ربّما يجب أن يفتّوا له بعض أغاني «الكوندمبلاي»... كان ينبغي فعل شيء، وفجأة التفت إلى «رشيقي الحركة» وقال له:

- هات الضفدع؟ لنعطه له...

- ليس ضفدعا، إنه ضفّيدة، ولكن بماذا ستفيدّه الآن؟

- قد تُعجبه..

أمسك «رشيقي الحركة» الضفدعة بلطف، ووضعها بين يدي «كينكاس» المتصالبتين، فقفز الحيوان الصغير واختفى في عمق التابوت، ولكن، حين كان ضوء الشموع المتراقص يضرب جسمه الصغير، كانت بعض البروق الخضراء تنعكس على جسد الميت.

وعاد «العريف» و«الطائر الجميل» إلى النقاش مرّة أخرى حول «كيتاريا جاحظة العينين». ومع جرعات «الكشاسا» صار «الطائر الجميل» أكثر عدوانية فرفع صوته دفاعا عن وجهة نظره... فتهرر «المدّهون» مويّخا:

. ألا تشعر بالخزي وأنت تتصارع على امرأته أمام عينيّه؟ لحمه مازال ساخنا وأنتما كطائر البفاث الأسود تقاتلان من جيفة ساكنة؟

- هو وحده من يستطيع أن يقرر...

أجاب «رشيقي الحركة».

لقد كان يأمل أن يختاره «كينكاس» لورثة «كينتاريا»، كنزه الوحيد...
ألم يأتيه بضغدة خصرء، هي الأجل من بين كل ما اصطاد؟
-هممم!

ردّ المرحوم.

فصاح الزنجي غاضبا:

-أرأيت؟ إنه لا يحبّ هذا الحديث.

- هيا.. لنعطه هو أيضا جرعة معنا...

هكذا اقترح «العريف»، راغبا في كسب رضى المرحوم. ففتحوا
فمه و سكبوا فيه جرعة من «الكشاسا» ما لبثت أن فاضت على طوق
السترة وعلى ياقة القميص.

-لم يسبق لأحد أن رأى شخصا يشرب وهو نائم!

- من الأفضل أن نُجلسه، وهكذا يستطيع أن يرانا كما ينبغي.

وبالفعل، سرعان ما رفعوه وأجلسوه داخل الصندوق، فراح رأسه
يتمايل من جهة إلى أخرى، وبعد جرعة ثانية من «الكشاسا» اتسعت
ابتناسمته.

صاح «العريف» وهو يتفحص القماشة:

- سترة فاخرة! ومن البلاهة إكساء جثة مثل هذه الثياب الجديدة
الفاخرة، فعندما يموت المرء، يموت وينتهي معه كل شيء، فيرحل إلى
باطن الأرض.. هكذا هو الأمر ببساطة.. سترة فاخرة ليأكلها الدود،
في حين يثنّ مئات الناس من العراء!

وفكر الآخرون في قرارة أنفسهم: إنها كلمات تتضح بالحقيقة...
لقد حان دور «كينكاس»، امنحوه جرعة أخرى... وهزّ الميت رأسه،
فقد كان رجلا يُعطي الحق لمن يستحقّه، وهو بالتأكيد، موافق على
آراء «العريف».

- هكذا سيُتلف ملبسه.

- من الأفضل نزع سترته كي لا تتسخ.

بدا «كينكاس» في غاية الراحة عندما نزعوا عنه السترة السوداء الثقيلة. ولكن بما أنه استمرّ في احتساء «الكشاسا»، فقد خلعوا عنه قميصه أيضا. كان حذاء «الطائر الجميل» مترهلا باليا، فظلّ يداعب بعينيه الناعمتين حذاء المرحوم البراق:

- أليس الميت في غنى عن مثل هذا الحذاء الجديد؟ أليس كذلك يا «كينكاس»؟

- ذلك رأيي تماما.

- إنه على مقاس قدمي بالضبط...

وألبس الجثة حذاءه القديم البالي.. لقد نزعوا عنه ثيابه قطعةً بعد أخرى وتقاسموها، ثمّ جمع «المدهون» ملابس صديقه القديمة الملقاة في زاوية الغرفة وألبسوه إيّاها وحينها فقط تمكّنوا من التعرف إليه:

- أجل، هذا هو «كينكاس» المعجوز.

شعروا جميعا بالفرح، وحتى «كينكاس» بدا أكثر سعادة هو الآخر، بعد أن تخلّص من تلك الملابس المزعجة. وكان ممتنّا بصورة خاصّة من «الطائر الجميل» فقد كان الحذاء يعتصر قدميه ويضغط على أصابعه، فاغتنم هذا الأخير الفرصة ليقرب فمه من أذن «كينكاس» ويهمس له بشيء ما بخصوص «كيتاريا». لماذا فعل ذلك بحقّ الجحيم؟ لقد كان المدهون مُحققا تماما حين حدّر من أنّ «كينكاس» لا يطيق أيّ حديث عن هذه الفتاة... فهي هو يبصق ما في فمه من «الكشاسا» في عين «الطائر الجميل» وهو يرغى ويزبد من الغضب... أمّا الآخرون فقد ارتجفوا مذعورين، بعد أن تملكهم الرعب:

-لقد جُنَّ جنونه..

- ألم أقل لكم ذلك؟

كان «رشيقي الحركة» قد ارتدى السروال الجديد، واستولى «العريف» على السُترة، وفكّر «المدهون» في أنّه يستطيع أن يقايض بالقميص مقابل زجاجة «كشاسا» في إحدى الحانات التي يرتادها. وتحسّروا جميعا على الثياب الداخليّة التي لم تكن موجودة، فقال «العريف» لـ«كينكاس» بنبرة فيها الكثير من الجدّيّة:

- قد يكون ما فعلناه بك غير منطقيّ. لكنّ عائلتك مدرسة في البخل.. حتّى أنّ صهرك سرق ثيابك الداخليّة، هل تتصوّر ذلك؟
كان «كينكاس» أكثر صراحة منهم، فهتف شاتما:

-وجوه جوع...

- حسنا، ها أنت قلتها بنفسك، إنّها الحقيقة المرّة للأسف. فنحن لم نشأ توسيخهم، لأنّهم في النهاية أهلك. ولكن يا للبخل! يا للشح! المشروب على حسابنا! أين رأى أحدكم سهرة مؤانسة ميّت بهذا الشكل؟

-تصوّر.. ولا زهرة واحدة حتّى...

قال المدهون مساندا.. ثمّ أضاف:

- إنّني أفضل اليُتم على أن يكون لي أهل من هذه الفصيلة الرديئة.
- الرجال حمير والنساء حيّات
هكذا أوضح «كينكاس» بلهجة قاطعة.

- انظر، يا أبانا، تلك السمينة مازالت تصلح لشيء ما، فعندها مؤخّرة شهوانية.

- كيس من الضراطل!

- لا تقل هذا يا أبانا.. صحيح أنّها مترهّلة بعض الشيء، ولكنّها

ليست سيئة إلى هذا الحدّ، فلقد رأيت فعلاً ما هو أسوأ!

-زنجي حمار! لا يعرف ما معنى امرأة جميلة!

فتدخّل «رشيق الحركة» محاولاً انتهاز الفرصة:

-الجميلة حقاً هي «كيتاريا»... إنها شيء آخر... هممم... أليس

كذلك أيّها المجوز؟ ماذا تراها فاعلة الآن؟ في الحقيقة، أنا مستعد أن....

فقاطعه «الطائر الجميل»:

-اخرس.. عليك اللّعة.. هل تريد أن تُجنّنه مجدداً؟

لكنّ «كينكاس» لم يكن يصغي إليه، بل مال برأسه إلى جانب «العريف مرتان» الذي كان يحاول في تلك اللّحظة بالذات أن يختلس حصّته من دورة «الكشاسا»، وبصق عليه، فكاد يسقط الزجاجاة بضربة رأس.

وحينها تدخّل «المدّهون» مخاطباً صديقه بحزم:

- أعط والدنا حصّته أيّها اللصّ.

- لكنّه يبذّرها ويبصقها من فمه!

ردّ «العريف» موضّحاً.

- دعه يشرب كما يشاء. هذا حقّه!

فوضع «العريف» عنق الزجاجاة في فم «كينكاس» المفتوح وهو يقول:

- على مهلك أيّها الرفيق العزيز... لم أكن أريد أن أوذيّك. اشرب

على هوالك. فالحفلة حفلتك...

كانوا قد تخلّوا عن النقاش حول «كيتاريا»، فلم يكن «كينكاس»

يسمح بمجرّد طرح الموضوع.

وصاح «الطائر الجميل» بإعجاب:

- هذه «كشاسا» رائعة!

-بل متعفنة

صَحَّح «كينكاس» وهو الخبير العارف..

- رائحة بالقياس إلى سمرها...

قفزت الضفدعة على صدر كينكاس. فظلّ ينظر إليها بإعجاب ولم يلبث أن دسّها في جيب سترته العتيقة القذرة.

وبزغ قمر «باهيا» في السماء مُوزّعا نوره الفضيّ على المدينة والمياه.. وسرعان ما تسلّل عبر النافذة، ومعه تسلّل هواء البحر فأطفأ الشموع وغمر الظلام الغرفة وخيم على التابوت... في تلك اللحظات تناهت إليهم من الشارع موسيقى قيثارة مصحوبة بصوت امرأة تتغنّى بعذابات الحب. فلم يتمالك «العريف» نفسه عن الغناء...

- «كينكاس» يحبّ أن يسمع أغنية...

غنى الأربعة بانسجام، وكان صوت «المدھون» يتلاشى عبر مدارج السوق، نحو حوض قوارب الصيد حيث كانوا يشربون ويغنون بحضور «كينكاس» الذي يعشق الغناء الجميل... ولم يكن يفوت أية جرعة حينها، ولا كان يغيب عن باله أيّ لحن...

وفجأة سأل «الطائر الجميل»:

- أليس اللّيلة موعد تقديم طبق «مُوكاكا» الكابتن «مانويل»؟

- بلى، إنّه اللّيلة بالذّات..

أجاب «رشيّق الحركة» ثمّ أردف:

- واللّيلة، هناك «مُوكاكا» بالسّمك.

وأكد «العريف» قائلا:

- لا أحد يعدّ «مُوكاكا» مثل «ماريا كلارا».

ومدّ «كينكاس» لسانه. فانفجر «المدھون» مُقهقهقا:

- إنّه يعشق «المُوكاكا» بجنون!

- لماذا لا نذهب إذن؟ إذا تخلفنا فإنّ الكابتن «مانويل» سيستاء لغيابنا...

تبادلوا النظرات مترددين، لقد تأخروا قليلا عن الموعد. وعليهم قبل ذلك أن يذهبوا لإحضار النساء... فصارحهم «الطائر الجميل» مذكرا:

- لقد وعدنا بأن لا نتركه وحيدا.

- وحيدا؟ ومن سيتركه وحيدا؟ سيأتي معنا.

صاح «المدهون»:

- أنا جائع.

وسألوا «كينكاس»:

- هل تريد أن تذهب معنا؟

- وهل أنا مشلول لأبقى هنا؟

جرعة جرعة وغدت آخر الزجاجات فارغة تماما. ثم أوقفوا «كينكاس»، فعلق «المدهون»:

- هو سكران إلى درجة أنه لا يستطيع الوقوف، فمع تقدّمه في السنّ لم يعد قادرا على تحمّل «الكشاسا»..

- تعال يا أبي، لنذهب من هنا..

قال «المدهون» مُمسكا بذراع «كينكاس»، وقد أعطاه «العريف» ساعده هو الآخر. وانطلق الموكب المهيّب: «الطائر الجميل» و«رشيّق الحركة» في المقدّمة، وخلفهما «كينكاس» في غاية السرور وهو يتقدّم بخطى راقصة بين «الزنجيّ المدهون» و«مارتان العريف»

XI

ستبقى تلك الليلة موشومة في الذاكرة، لا يقوى عليها النسيان، ولا تدركها يد الغياب مهما جرى. كان «كينكاس هدير الماء» في أحلى أيام حياته، فسرى في الجماعة حماس غير مهود، أحسوا بأنهم أسياد الكون في تلك الليلة المدهشة، عندما أضفى القمر غلالة من السحر على مدينة «باهيا» زادتها فتنة وغموضا.

كان العشاق في منحدر «بوليرينيو» يلوذون بالبوابات العتيقة، والقطط تموء فوق السطوح، ومن تحت النوافذ كانت ألحان الحب تنساب صافية من القيثارات... حقًا، لقد كانت ليلة مسحورة ساحرة... خفقان الطبول يتناهى إلى الأسماع من بعيد... ومنحدر «بوليرينيو» المؤلف صار أشبه بمنصة سحرية لا يتحرك فوقها غير الملائكة والأشباح..

وكان «كينكاس هدير الماء» في ذروة البهجة عابثا بكل شيء، فمرة يُحاول أن يعرف «المريف» و«الدهون» معا، ومرة يُخرج لسانه للمارة وكأنه يسخر من الناس جميعا، وأحيانا يميل برأسه على أحد الأبواب ليتجسس بخبث على عشيقين متلاشين في الحب، ومع كل خطوة كان يعلن عن رغبته في التمدد على الشارع، فمشى الأصدقاء الخمسة على مهل وكان الزمان مجرد خادم عندهم، أو كأنهم يعيشون خارج رزنامة الأيام، وكأن تلك الليلة الساحرة في «باهيا» يجب أن تمتد أسبوعا آخر على الأقل. وفي الواقع، لقد كان «الدهون» على حق حين أعلن أن احتفالا عظيما مثل الاحتفال بعيد ميلاد «كينكاس هدير

الماء» لا يمكن أن يُمتَصَّر في بضع ساعات. والجميل أن «كينكاس» لم ينكر على الإطلاق بأن هذا اليوم هو عيد ميلاده رغم أن الآخرين لا يذكرون أنهم احتفلوا به في السنوات الماضية ولو مرة واحدة، وكل ما كانوا يذكرونه هو احتفالاتهم بفراميات «الطائر الجميل» المتجددة على الدوام، واحتفالاتهم بأعياد ميلاد «ماريا كلارا» و«كيتاريا»، وفي مرة من المرات النادرة احتفلوا بمناسبة الاكتشاف العلمي الذي حققه أحد علماء المخابر الذين يزودهم «رشيقي الحركة» بالضفادع والفئران. ففي غمرة بهجته بهذا الاكتشاف وضع العالم الجليل في يد «مساعدته المتواضع» ورقة نقدية من فئة الخمسمائة. أما الاحتفال بعيد ميلاد «كينكاس»، فإنه يحدث للمرة الأولى في التاريخ.

كانوا يسرون على منحدر «بوليرينيو» قاصدين بيت «كيتاريا»، وحين وصلوا بدا لهم كل شيء في المكان مثيرا للغرابة والشك! أين ضوضاء الحانات وصخب بيوت الدعارة في «ساو ميغل»؟ هل قامت دورية الشرطة بغارة مفاجئة وأغلقت المياغي والحانات؟ لا بد إذن أن يكون المحققون قد أخذوا «كيتاريا» و«كراميللا» و«دوراليس» و«مارغاريدا السمينية» وقد نزع بدورنا في الفخ لذلك تولّى «العريف» قيادة العمليات على الفور، فأرسل «الطائر الجميل» لاستكشاف المكان: - خذ معك حرساً مُرافقاً.

أوضح العريف بنبرة حازمة.

ثم جلسوا على درجات كنيسة «لارغو» منتظرين عودة الكشافين. وفي حوزتهم ما تزال زجاجة كاملة تنتظر الرحمة، بينما استلقى «كينكاس» على ظهره مُقلِّباً يبصره السماء.. مبتسما لضوء القمر.

وسرعان ما عاد «الطائر الجميل» مرفوقاً بـ «شلة» صاحبة، تهتف وتهلل.. وفي مقدمتها كانت تبرزُ بوضوح صاحبة الوجه المهيب «كيتاريا

جاحظة العينين» وقد تسربت بالسّواد من رأسها إلى أخمص قدميها،
تكاد تسقط من وقع الصدمة لولا امرأتان كانتا تسندانها:
- أين هو؟ أين هو؟

صرخت بكلّ لهفة، فسارع «الطائر الجميل» بالتدخل واعتلى المدرج
بخطوات برقية. فبدأ بلباسه الأسود الرسمي أشبه بسياسي مُحَنّك في
حشد من الجماهير:

- أيّها الناس، لقد سرّت إشاعة مفادها أنّ «هدير الماء» لقي حتفه،
فخيّم الحزن ولبس الجميع ملابس الحداد...

وهنا تداخل الصّوت بقهقهة «كينكاس» وأصدقائه، فصمت
«الطائر الجميل» لحظة، ثمّ واصل:

- إذن، إنّه هنا، أيّها النّاس.. اليوم عيد ميلاده، وها نحن نحتفل
به. سنقيم وليمة في مركب صيد الكابتن «مانويل».

وفي تلك اللّحظة تحرّرت «كيتاريا جاحظة العينين» من ذراعي
«دوراليس» و«مارغو السمينة»، وحاولت أن تتحرّك في اتجاه «كينكاس»
الجالس إلى جانب «المدّهون» على إحدى درجات الكنيسة. ولكنّها
سرعان ما فقدت توازنها بسبب التّأثّر العميق في تلك اللّحظة
الخارقة، دون شكّ، ووقعت على مؤخّرتها. فساعدوها في النهوض
على الفور وقربوها منه:

- لصّ! كلب! سافل! ماذا فعلنا لك لكي تشر هذه الإشاعة وتزرع
في قلوبنا الذعر؟

وجلسّت إلى جانب «كينكاس» المبتسم، وأمسكت يده ووضعتها على
صدرها القوي لكي يحسّ بنبض قلبها المذعور:

- لقد تمنّيت الموت حين بلغني الخبر، بينما أنت تضحك طوال
الوقت مستمتعا بهذا «المقلب».. لا شيء ينفع معك أيّها السكّير المخبول

يا «هدير الم...اء»! يا مُعلّم الشيطان! كدت أظنّني لن أفعل معك أي شيء لذيد بعد اليوم! لا... لا... كيف يمكن ذلك؟ لقد كدت تتسبّب في موتي!

وانتجها صوب بيت «كيتاريا» والقهقهات العالية تقطع أحاديثهم من حين إلى آخر، فيما عادت الضوضاء إلى الحانات مُجدّداً وانبعثت الحياة على طول منحدر «ساو ميغيل»، وكانت «كيتاريا» في لباسها الأسود تفيض جمالا على كلّ من حولها، فلم يشتهوها من قبل مثلما اشتوها تلك الليلة.

في طريق عودتهم عبّر «ساو ميغيل» وجدوا أنفسهم موضوع تظاهرات متعدّدة، ففي حانة «فلور دي ساو ميغيل» أهداهم الألماني «هانسن» جولةً من جرعات «البنفا»، وأبعد قليلا إلى الأمام، وزّع الفرنسي «فيرجاي» تمائم إفریقیّة على النساء... ولم يستطع أن ينضمّ إلى الموكب، لأنّه كان ملتزما باحتفال ديني. وعادت أبواب المواخير لتُفتح من جديد، فأطلّت النساء من النوافذ وظهرن على الأرصفة، وفي الطريق كان الناس يشاهدون «كينكاس» فيهتفون باسمه ويحيّونه وكان يردّ النحيّة بإيماءة من رأسه وكأنّه ملك عائد إلى مملكته بعد النصر. وفي بيت «كيتاريا» كان كلّ شيء يشي بالحداد والحزن، ففي غرفتها بدت صورة «كينكاس» واضحة إلى جانب صورة القديس «بونفيم» والمجسّم الطيني لمرشدها في ديانة «الفودو» وحاميها الخارق «كلو أروابرا»، وهي صورة مقطّعة من إحدى الجرائد، نُشرت ضمن سلسلة من التحقيقات الصحفيّة لـ «جيوهاني غيماريس»، وضعتها «كيتاريا» بعناية فائقة بين شمعتين مُضاءتين ووضعت أسفلها وردة حمراء يانعة. واثّر دخولهم بادرّت «دوراليس» رفيقتها في البيت بفتح زجاجة جديدة، وقَدّمت الشراب إلى الوافدين في كؤوس زرقاء. بينما أطفأت «كيتاريا» الشمعتين، وتمدّد «كينكاس» على السرير. ولاذ الآخرون

بغرفة الطعام، ولم يدُم الوقت طويلا حتى انضمت إليهم «كيتاريا»:

- لقد نام اللثيم....

- لقد شرب فوق طاquته كثيرا، أيتها الأم الصغيرة..

أوضح «رشيقي الحركة»

فتدخل «المدهون» ناصحا:

- اتركه ينام قليلا.. فمن المستحيل أن يقدر على فعل شيء اليوم.

وهذا من حقه، أليس كذلك؟

ولكنهم تأخروا عن مأدبة سمك الكابتن «مانويل». وينبغي إيقاظ

«كينكاس» بعد قليل. وسوف ترافقهم «كيتاريا» والزنجية «كارميلا»

و«مارغريدا السمينية». أما «دوراليس» فقد اعتذرت عن قبول الدعوة،

لأنها تلقت رسالة من الدكتور «كارمينو» يُعلمها فيها بقدومه في تلك

الليلة. والدكتور «كارمينو»، كما هو معلوم، يدفع شهريًا. وذلك وحده

كاف لعدم التفكير في الإساءة إليه.

نزلوا منحدر الشارع مُسرعين هذه المرة، وكان «كينكاس» يركض

تقريبا، ويتعثر بالحجارة وهو يجرجر قدميه بين ذراعي «كيتاريا»

و«المدهون» اللذين يُمسكان بساعديه، وكانوا يأملون أن يُسعفهم الحظ

ويُدرِكوا مركب الصيد قبل أن يُبحر، ومع ذلك فقد توقّفوا في منتصف

الطريق عند حانة «كازوزا» صديقهم القديم. وهي حانة سيئة السمعة

يتردّد عليها رطل من المُشرّدين المرموقين ومُدمني الماريجوانا، فلا

تمرّ ليلة فيها دون شجار. ولكن «كازوزا» كان رجلا طيبا يوزّع عليهم

بعض الكؤوس بالدين وأحيانا يُقرضهم زجاجة كاملة. وبما أنهم لا

يقدرّون على الذهاب إلى السفينة بأياد فارغة فقد قرّروا التعرّيج على

«كازوزا» لعلّ الله يهديه فيمنحهم ثلاث ليترات من «الكشاسا» أو أربع

ليترات إن أمكن.

بينما كان «العريف» الديبلوماسي المُحنَّك، يوشوش على «الكونتوار» مع صاحب المحلّ المذهول لرؤية «كينكاس هدير الماء» في أفضل حالاته، جلس الآخرون على إحدى الطاولات لفتح شهيتهم على حساب المحلّ احتفاءً بعيد ميلاد الزعيم... كانت الحانة تقصّ بمدخني الماريجوانا ويعدد من البحّارة المُبتهجين، والمومسات المهترئات حتّى العظم، وسائقي الشاحنات المتّجهة في تلك اللّيلة إلى سوق «سنتانا». ولم يكن المراك في تلك الأجواء البهيجة متوقّفاً على الإطلاق. ولكنّ ثبت بعد ذلك أنّ «كينكاس» كان المسؤول الأوّل والأخير عن نشوبه.

كان جالسا، ورأسه مُلقى على صدر «كيتاريا»، وساقاه ممدودتان، وعلى ما يبدو، فقد تعرّث أحد الفتية أثناء مروره بقدمي «كينكاس» وكاد يسقط، فاحتجّ بأسلوب وقح، لم يستسغه «المدهون» على الإطلاق...
- لـ «كينكاس» في هذه اللّيلة كلّ الحقوق بما في ذلك مدّ ساقيه كما يريد ويستهي...

هكذا قال «المدهون» لمدخّن الماريجوانا. وبما أنّ الفتى لم يردّ الفعل، فإنّه لم يكن لهذه الواقعة أيّ تأثير يُذكر. ولكن بعد ذلك بدقائق فقط أراد شابّ آخر من مدخني الماريجوانا أن يمزّ، فرجا «كينكاس» بأن يطوي ساقيه، ولكنّه لم يُعره غير أذن صمّاء، ضاربا بأدبه المُصطنع عرض الحائط... حينها جنّ جنون الفتى فلم يكتفِ بثتم «كينكاس» بأقذر العبارات فحسب، بل ركّله ركلةً عنيفة على ساقيه، نطّحه «كينكاس» على إثرها بضربة من رأسه، واندلعت المعركة...

أمسك «المدهون» على طريقته المألوفة الشابّ وألقى به على الطاولة المُجاورة، فتحوّل رفاق مدخّن الماريجوانا على الفور إلى وحوش... ومنذ تلك اللّحظة تداخلت الأحداث فلم يعد أحد يعرف ما يقع.. كلّ ما كان يُمكن رؤيته هو «كيتاريا» الجميلة واقفةً على كرسيّ

تَلَوَّحَ بزجاجة فارغة، و«مارتان العريف» وهو يصدر الأوامر بعد أن تولَّى قيادة العمليات.

وسرعان ما انتهت المعركة بانتصار ساحق لأصدقاء «كينكاس» الذين انضمَّ إليهم سائقو الشاحنات، مخلفة إصابة في عين «رشيقي الحركة» وشرخا في معطف «الطائر الجميل»، وهي خسارة جسيمة، في حين كان «كينكاس»، ملقى على الأرض، بعد أن تلقى بعض الضربات العنيفة، واصطدم رأسه ببلاط الرصيف. أما مدخنو الماريجوانا فلم يتركوا وراءهم غير غبار الطريق.

انحنى «كيتاريا» على «كينكاس» محاولة رفع معنوياته، بينما كان «كازوزا» يتأمل بصورة فلسفية حانته المقلوبة رأسا على عقب، مفكرا في أنَّ حالة الحانة، بأقدام الكراسي المتطايرة والطاولات المقلوبة والكؤوس التي غدت نُثارا منثورا، ستخدمه بشكل أفضل في قادم الأيام، فلا شك أنَّ الخبر سينتشر بسرعة، ويزيد من شهرة المحلِّ ومن عدد رواده. وبعد جرعة جيِّدة، ارتفعت معنويات «كينكاس»، وواصل الشرب بطريقته الغريبة باصقا بعض «الكشاسا» في تبذير واضح.. حتَّى أنَّ «العريف» كان حانقا في قرارة نفسه وهو يرى ذلك المشروب يضيع هباءً: «يا للخسارة.. إنَّه شراب ممتاز ولكن ما دام في عيد ميلاده فليُفعل به ما يشاء..»

ثمَّ غادروا الحانة إلى الميناء.

كان الكابتن «مانويل» ينتظرهم، و«موكاكا» السَّمك تنضج ببطء على نار خفيفة فوق رصيف الميناء، وحولها يتحلَّق عدد من الصيَّادين.. أمَّا الكابتن «مانويل» فقد كان في المركب كمادته، ولم يفكر في النزول إلى البرِّ لأنَّه لم يصدِّق أصلا خبر موت «كينكاس».. فكيف يمكن لـ «ذئب البحار العجوز» أن يموت على سرير رثِّ في غرفة بائسة، وأنَّ

يُدفن في التراب، وفي البحر أسماك كافية لالتهام شعب من الموتى؟»
وحين بلغه النبأ رفضه دون أيّ تفكير، لذلك فإنّه لم يندهش على الإطلاق عندما رأى «كينكاس» قادمًا وهو يتأبط ذراع «كيتاريا».

- هناك «موكاكا» بالسّمك كافية للجميع....

أرخوا الأشرعة ورفعوا المرساة، فرسم لهم القمر مسلكا فضيًا على صفحة البحر، فيما بدت مدينة «باهيا» ملتحفة بظلالها القائمة وهي ترقبهم من فوق جبلها الأسود. وابتعد المركب رويدا رويدا وعلى إيقاعه بدأت «ماريا كلارا» تصدح بأغنية بحريّة:

«في أعماق البحار وجدتك أخيرا

مجلّة حتّى قدميك بالصدف...»

تحلّقوا حول المرجل وبخاره يتطاير في الفضاء، وامتلأت قدور الخزف بحساء زيت النخيل والفلفل، وبدأت زجاجة «الكشاسا» تنقل من يد إلى أخرى. والفضل في ذلك يعود إلى «العريف» الذي لم يضع أبدا أهدافه الدقيقة ورؤيته الواضحة للحاجيات الأساسيّة، وبما أنّه جنديّ سابق لا يتحمّل أيّ خسارة، فقد اغتتم فرصة الفوضى التي عمّت الحانة للتعوّض عن فشل مفاوضاته مع «كازوزا» فاختلس بعض الزجاجات أثناء العراك ودسّها تحت ثياب النساء.. «كينكاس» وحبيبته «كيتاريا» فقط بقيا خارج الحلقة ولم يأكلا شيئا، بل اكتفيا بالاستلقاء في مؤخّرة المركب، شبه منصتين إلى غناء «ماريا كلارا»، وكانت الجميلة «جاحظة العينين» توشوش في أذن «ذئب البحار المعجوز» ببعض كلمات الحبّ والعتاب:

- لماذا سيّبت لي كلّ هذا الذعر يا «هدير» اللّئيم؟ أنت تعرف أن قلبي ضعيف وقد نصحني الطبيب بتجنب الغضب. أيّ أفكار هذه التي تخطر على بالك؟ ألا تعلم أنّي لا أستطيع العيش من دونك يا

شريك الشيطان؟ لقد أدمنتك وأدمنتُ الأشياء المجنونة التي تقولها لي، أدمنتُ شيخوختك الحكيمة.. أساليبك الوحشة.. وحبك للعطاء.. واليوم تفعل بي كل هذا؟ لماذا؟

وأمسكت رأسه الجريح ثم قَبَلت عينيه الخبيثتين. ولكنها لم تظفر بأي إجابة منه.. فقد كان يتطلع إلى الهواء البحري، واحدى يديه متدلّية خارج المركب مُخَلِّفَةً جرحاً مستقيماً على جسد البحر.

في بداية الحفلة كان كل شيء هادئاً وجميلاً: صوت «ماريا كلارا»، حساء السمك اللذيذ.. النسيم البحري الذي بدأ يخرج عن سكونه.. القمر في السماء.. ودندنة «كيتاريا» الجميلة. وفجأة بدأت الغيوم تحتشد أقصى الجنوب فابتلمت القمر وأطفأت النجوم وغدا الهواء بارداً وسريعاً.. وحذر الكابتن «مانويل» أصدقاءه:

- ستكون ليلة عاصفة، من الأفضل أن نعود.

فكّر في إيصال المركب إلى الميناء قبل وصول العاصفة، غير أنّ «الكشاسا» كانت لذيدة، والمحادثات في غاية الروعة، وما زال هناك كثير من السمك في الرجل، يطفو فوق زيت النخيل الأصفر، وبدأ صوت «ماريا كلارا» يميل إلى الفنج الحزين، وقد كان ذلك كفيلاً بإغراء الجميع بالبقاء طويلاً في البحر. ومن جهة أخرى، كيف يجرؤ على مقاطعة غراميات «كينكاس» و«كيتاريا» في تلك الليلة الاحتفالية؟ أدركتهم العاصفة وهبت عليهم الرياح القويّة، وحاصرتهم الأمواج العاتية، وأظلم كل شيء حولهم، فبدت مدينة «باهية» متلائة من بعيد، وفجأة شقّ وميض البرق الظلام، وبدأ المطر يهطل بغزارة.

كان الكابتن «مانويل» ممسكاً بالدفة والغليون في فمه.. ولكن لا أحد فهم كيف استطاع «كينكاس» النهوض على قدميه والاستناد إلى الشراع الصغير، و«كيتاريا» شاخصة فيه بعينيها العاشقتين غير

قادرة على تحويل بصرها عن وجه البحّار العجوز المتسم للمياه وهي تفسل المركب، والبروق تضيء العتمة. كان الرجال والنساء مُتَشَبِّثِينَ بالحبال، متعلّقين بجوانب المركب، والريح تعصف والمركب الصغير يهدد بأن يفرق في أية لحظة. سكّت «ماريا كلارا» ووقفت إلى جانب الكابتن «مانويل» عند الدفّة...

حطّمت الأمواج ألواح المركب الخائرة، ومزّقت الرياح الأشرعة، ولم يبق صامدا غير غليون الكابتن «مانويل» ووجه «كينكاس» المشرّتب كذئب البحار لمواجهة العاصفة راثقا ومهيبا..

كان المركب يتقدّم ببطء وصعوبة نحو المياه الأكثر هدوءا، وفيما ظلّ الجميع أنّهم بلغوا منطقة الأمان وأنّهم سيستأنفون حفلتهم من جديد، خطفت أبصارهم فجأة خمسة بروق متتالية، وقصف الرعد بصوت خارق كأنّه من يوم الحشر، وهزّت موجة شاهقة المركب..

تعالّت صرخات الفزع والاستغاثة من النساء والرجال معا. وصاحت «السمينة مارغو»:

- أنقذيني أيتها العذراء!

في ذروة هيجان البحر، وفي قلب الخطر المُحدق بالمركب المنهار، تحت وميض البرق، شاهدوا جميعا «كينكاس» يلقي بنفسه في البحر وسمعوا كلماته الأخيرة:

- على كل فرد أن يعتني بدفن نفسه، فلا وجود لمستحيل

كان المركب يدخل في المياه الهادئة، وكانت الجماعة قد استعادت هدوءها وإحساسها بالسلامة والأمان، ماعدا «كينكاس» فقد أثر أن يُكفّن بلحاف من الأمواج وزبد البحر، واختار العاصفة بإرادته الحرّة.

XII

لم تكن لوكالة الدفن آية رغبة في استعادة التابوت حتّى بنصف ثمنه. كان عليهم أن يدفعوا كلّ شيء، وقد وجدت «فندا» حلاً للشموع المتبقية فعادت بها إلى منزلها، في حين ظلّ التابوت إلى حدّ هذا اليوم في مخزن «إدواردو» منتظراً بيعه إلى ميت من الدرجة الثانية. أمّا كلمات «كينكاس» الأخيرة فما زالت الروايات مختلفة حولها إلى الآن. فمن كان يستطيع أن يستمع إليه مباشرة في تلك الليلة العاصفة؟ ولكن حسب رواية شاعر جوال، وهي الرواية التي راجت في السوق دون غيرها من الروايات، كانت اللحظات الأخيرة على هذا النحو:

في خضمّ الاضطراب العميم سُمع «كينكاس» يقول:

«سأدفن كما أشتهي

في الساعة التي أشتهي.

يمكنكم أن تحفظوا تابوتكم إذن

لميتة جديدة، وميت جديد.

أمّا أنا فلن أترك أحداً يحبسني

في قبر أرضي رذيل،

وكان من المستحيل معرفة بقية الكلمات.

ريو، أفريل، 1959.

مكر الحقيقة وصراع التخيلات إمكان قراءة على سبيل الحاشية

الصدق الشاعر غرم الله الصقاعي
رحل وفي نفسه أكثر من «كينكاس»

1/ اهدأ أيها الأستاذ! اهدأ قليلاً...

«وذات يوم ربيعي مقدس فتحت النوافذ. كانت شجرة المندرين مزدهرة في الجانب الآخر من الشارع ودخلت رائحتها الصف. فتحوّل كل عقل من عقولنا إلى شجرة مندرين مزدهرة ولم نعد نقوى على احتمال سماع أي شيء آخر من الأستاذ حول الحركات والعلامات الحادة والمنحنية. وفي اللحظة ذاتها جاء عصفور وحطّ على شجرة الدلب في باحة المدرسة وبدأ يزقزق. عند هذا الحدّ، كان تلميذ شاحب أحمر الرأس، وصل هذا العام من قريته واسمه نيكولويس، قد فقد السيطرة على نفسه تماماً، فرفع إصبعه وقال:

(1) "اهدأ أيها الأستاذ! اهدأ قليلاً.. دعنا نسمع العصفور"

1/ حاشية أولى،

ما الذي جاء بنيكوس كازنتزاكي إلى عتبة هذه الصفحات والمسافة بين اليونان والبرازيل تمتد على أكثر من قارة غير مكر الكتابة نفسها وهي تحاول منذ البدء أن تتخطى منزلقاتها. ذلك هو الإحراج الأول الذي يضعنا أمامه عمل ساحر مثل

(1) نيكوس كازنتزاكي، تقرير إلى غريكو، ترجمة معدوح عدوان، دار الجندي، دمشق، د.ت. ص 56.

«ميتان لرجل واحد» لجورج أمادو، عمل قوامه السخرية من كل شيء والتلاعب بكل شيء بما في ذلك الموت نفسه، إذ يجرده من ثقله وهيبته ويجعله مجرد مادة للعب. كيف نقبض على فتنة هذه الرواية التي وسمناها بـ«الساحرة» وكلمة «ساحر» لا تعبّر ها هنا إلا عن عجز اللغة عن الإمساك بموضوعها، حتى أنّ ضحكة مأكرة ارتسمت على الوجه ونحن نتخيّل مرتّب غريماس السيميائي يتصبّب عرقاً أمام عمل مثل هذا يعصف بكلّ المقولات الثنائية وتضطلع فيه شخصية الميت وهي الشخصية المحورية هنا بدور الفاعل والمفعول، دور القائم بالفعل والواقع عليه الفعل في اللحظة ذاتها. ولكنّ هذه الضحكة المأكرة سرعان ما انقلبت علينا نحن أيضاً وتحولت إلى علامة فزع بمجرد اقتراح السيّد الناشر وهو هنا ضمير المتكلم كتابة تقديم لهذا العمل لاقتناعاً بأنّ أيّ محاولة ستكون شبيهة بالأستاذ الذي يصدّع رؤوس التلاميذ بالعلامات الحادة والمنحنية في درس الصوتيات، فيما تفريد البلبل ينساب رقراقاً إلى مسامعهم ويرسل كلّ كلام الأستاذ إلى سلة المهملات. لذلك لا تدّعي هذه الصفحات أنّها تقديم لأنّ التقديم عتية توجّه القراءة وتختزلها في وجهة نظر المقدّم دون سواء، وفي ذلك تنكّر لجوهر هذا العمل الذي يرفض كلّ سلطة، بل تقدّم نفسها بوصفها إمكان قراءة، وحوارية بين النصوص لا حواراً يقوم على منطلق السؤال والجواب. وهي تتطلق من تصوّر راسخ مفاده أنّ كلّ كتابة أثرٌ يخلف في القارئ أثراً، هو الأثر الذي سنعمل على إبرازه في قادم الصفحات، لذلك لن بصمت الأستاذ، ولكنّه سيحاول أن يقلّد صوت العصفور.

2/ الحقيقة في قرارة بئر- أمادو فاضحاً أمادو...

«قرأت ذات يوم، ولم أعد أذكر ما إذا كان ذلك في كتاب أم في صحيفة أنّ الحقيقة مرمية في قرارة بئر... ليس فقط أنّ الحقيقة موجودة في قرارة بئر بل وهناك يمكن العثور عليها عارية، دون ستار

لِيُفْطِئَهَا أَوْ حَتَّى لِيُفْطِئَ عَوْرَتَهَا. ... فِي قَرَارَةٍ بَثْرٍ وَعَارِيَةٍ.

البَثْرُ لَيْسَتْ بَثْرًا، وَالْقَرَارَةُ لَيْسَتْ قَرَارَةً. وَكَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ فَإِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ الْحَقِيقَةَ يَصْعَبُ نَيْلُهَا وَأَنَّهَا لَا تَعْرُضُ نَفْسَهَا عَارِيَةً فِي الْأَسْوَاقِ بِمُتَنَاوِلِ كُلِّ إِنْسَانٍ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِنَا، وَاجِبِنَا جَمِيعًا، الْبَحْثُ عَنْ حَقِيقَةِ كُلِّ وَاقِعَةٍ، وَأَنْ نَفْرُقَ أَنْفُسَنَا فِي ظِلْمَةِ الْبَثْرِ لِنُفَصِّلَ إِلَى نُورِهَا الْقُدْسِيِّ. صَدَقُونِي إِنَّ رَغْبَتِي، وَرَغْبَتِي الْوَحِيدَةَ، هِيَ أَنْ أَكُونَ مَوْضُوعِيًّا وَبَعِيدًا عَنِ الْعَوَاطِفِ، رَغْبَتِي فِي الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَسَطِ الْمَجَادَلَاتِ، وَنَبْشِهَا مِنْ الْمَاضِي دُونَ انْحِيَاظٍ، وَتَعْرِيفِهَا مِنَ الصَّيْغِ الْمُتَنَاقِضَةِ لِكَشْفِ كُلِّ الْأَسْتَارِ الَّتِي نَسْجُهَا الْخِيَالُ مِنْ أَجْلِ إِخْفَاءِ الْحَقِيقَةِ الْعَارِيَةِ وَلَوْ جَزْئِيًّا. كَمَا تَرَوْنَ: مَرَّةً أُخْرَى يَصْبِحُ مِنَ الصَّعْبِ الْوُصُولُ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَتَجْرِيدُهَا مِنْ أَسْتَارِ الْخِيَالِ.

هَلْ يَسْتَطِيعُ قَرَّائِي الْآنَ، بِثِقَافَتِهِمْ وَخَبْرَتِهِمْ أَنْ يَقُولُوا لِي: مَا هِيَ الْحَقِيقَةُ. الْحَقِيقَةُ الْكَامِلَةُ؟

هَلْ تَكْمُنُ الْحَقِيقَةُ فِي الْوَأْدِ الْيَوْمِيَّةِ وَالْأَحْدَاثِ الْمُتَكَرِّرَةِ، فِي التَّفَاهَةِ أَوْ السُّوْفِيَّةِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِهَا حَيَوَاتُ مَعْظَمِ النَّاسِ؟ أَمْ أَنَّ لِلْحَقِيقَةِ مَا وَاهَا فِي الْحَلْمِ الَّذِي أُعْطِينَاهُ لِلْهَرَبِ مِنْ شَرْطَانَا الْإِنْسَانِيِّ؟ كَيْفَ يَسْمُو الْإِنْسَانُ عَلَى رَحْلَتِهِ فِي الْحَيَاةِ بِالْكِدِّ وَالْغَشِّ يَوْمًا بِيَوْمٍ؟ أَمْ بِالْحَلْمِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ قَيْدًا وَلَا حُدُودًا؟

أَيْنَ هِيَ الْحَقِيقَةُ؟ قُولُوا لِي، أَرْجُوكُمْ: فِي الْوَاقِعِ الصَّغِيرِ لِكُلِّ مَنْ؟ أَمْ فِي الْحَلْمِ الْإِنْسَانِيِّ الْكَبِيرِ؟⁽¹⁾

2/ حَاشِيَةٌ ثَانِيَةٌ:

غُرْفَةٌ مَظْلَمَةٌ. رَجُلٌ أَنْيَقٌ مَسْجَى فِي تَابُوتٍ. شَمْعَتَانِ تَجَاهِدَانِ الْعَتَمَةَ. وَفَرِيقَانِ مُتَوَازِيَانِ. هَذَا كُلُّ مَا فِي الصُّورَةِ. تَضَادٌّ فِي الْأَلْوَانِ، تَدْرُجٌ فِي الْعَمَقِ: وَاجِهَةٌ وَخَلْفِيَّةٌ، وَانْسِجَامٌ فِي الْمَكُونَاتِ: أَرْبَعُ شَخْصِيَّاتٍ

(1) جورج أمادو، عودة البعث، ترجمة ممدوح عدوان، دار ورد، دمشق 2001. ص 5-6.

وراء أربع. كل شيء داخل الإطار يوحي بالتناسق والذوق لولا ثلاثة عناصر بدت غريبة ناشزة: لطخة مائلة على وجه الميت أي ضحكة ساخرة تعبت بالحاضرين وتخلع عن الموت كل هيبة وخشوع، وكرسي يتيم قرب التابوت يفرض كل من يجلس عليه قوانين اللعبة ويصرفها على هواء، وكومة من الملابس الرثة ملقاة في أقصى الزاوية كاهتت يد الرسام على إخفائها بإتقان.

الجثمان واحد. وقد جاء كل طرف ليشيع شخصا ساكنا في التابوت. ولكن لحظة من فضلك!

- من يسكن التابوت؟ شخص أم شخصان؟

- انظر جيدا إلى الصورة! هنالك شخص واحد في التابوت.

- أهو مكر الحكاية أم مكر الألوان إذن؟

- لا فرق ما دامت النتيجة واحدة وهي أن أمادو يعيث بنا جميعا.

جنة واحدة، وحقيقتان، مسمّى واحد واسمان مختلفان، حياة واحدة وعمران متباعدان، موصوف واحد وصفتان متناقضتان، ومنذ البدء

يلقي بنا السيد أمادو الماكر من خلف راويه المطيع في قلب الغرابة.

هكذا تبدأ الحكاية: رجل في الستين يودّع العالم، ونبا موته يقلب

المدينة رأسا على عقب. أهو زعيم سياسي؟ أهو قائد عسكري؟ أهو

علامة بارزة في تاريخ البرازيل؟ لا شيء من ذلك.. إنه «كينكاس

هدير الماء» زعيم مُشرّدي مدينة «باهيا» وصلوك صماليكها، وهو في

الآن ذاته «جواكيم سواريس دا كونيا»، رب العائلة الطيب والموظف

المثالي في دائرة الضرائب، الرجل الأنيق الهادئ الذي يحظى

باحترام الجميع... ومرة أخرى تقفز الأسئلة إلى الذهن: أهو فصام

في الشخصية يتوسّل به المؤلف لبناء عمله الروائي؟ أم تناقض بين

ظاهر وباطن يحاول أن يضيفي من خلاله غلالة من الغموض على

بطله المحوري؟ ومرة أخرى تكون الإجابة: لا شيء من ذلك أيضا..

بل هو جورج أمادو يتلاعب بنا ويسخر منا جميعا إذ يجعلنا نصدق أن الحقيقة عارية في قرارة بئر. وفي الواقع ليس هناك أكثر خجلا من الحقيقة.. وإذا كنتم تشكون في ذلك فليخبرنا أحدكم: متى رآها عارية مرة واحدة في حياته؟ أما البئر فليست سوى دليل آخر على مكر الكاتب، لأنه لم يجرؤ على إعلامنا بمكانها. والغريب أن أمادو الملعون لا يتردد في التلبس بشخصية الشحاذ وهو يحاول أن يستدر شفقتنا بشيابه الرثة وعينيه الدامعتين متوسلا الإجابة: «أين هي الحقيقة؟ قولوا لي، أرجوكم: في الواقع الصغير لكل منا؟ أم في الحلم الإنساني الكبير؟ ولعل الطريف أن الكشف عن فتنة الرواية وعن دهاء صاحبها لا يمكن أن يكون إلا بالإجابة عن هذا السؤال. فأين تكمن الحقيقة؟ على الرغم من تعدد التصورات التي يسعفنا بها الفكر الإنساني في حد الحقيقة، فإننا يمكن أن نتوقف عند تصوّرين اثنين نراهما أساسيين في فهم التحول الذي طرأ عليها. أما التصوّر الأوّل فيمثله الطرح الميتافيزيقي القديم ومفاده أن الحقيقة موجودة سلفاً وعلينا نحن أن نبحث عنها، وسواء أكانت هذه الحقيقة في عالم الماهيات عالم الجواهر والمثل أم كانت ساكنة في قرارة بئر لا يعرفها سوى أمادو، فإن مهمتنا هي الوصول إليها، وإذا انقطعت السبل دونها وعزّ هذا المطلب فإن أقصى ما يطمح إليه الإنسان هو الحصول على نسخة قريبة منها تبقى محكومة دائما بقدرتها على محاكاة الأصل وطاقتها المتجددة على تمثيله. أما التصوّر الثاني فإنه يعصف بمفهوم النسخة ويُقيم بدلا منه مفهوم السوميلاكز⁽¹⁾ simulacres ويعني في

(1) يقدم المفكر الفرنسي جون بودريار مثالا جيّدا عن السوميلاكز، إذ يضمه في منزلة الخريطة في علاقة بالأرض الحقيقية التي تحيل عليها، فالخريطة واقع مصطنع، بنوب عن الواقع الفعلي، ولكن هذا الواقع تتصل من الإحالة على الأصل وصار يعمل بوصفه بديلا، فعجب تماما الواقع الأوّل وصار مكتفيا بذاته. يمكن التعمّق في السوميلاكز والوقوف على آليات اشتغاله في مختلف ضروب الخطاب، بالمودة إلى:

Jean Baudrillard; Simulacres et simulation; ed, Galilee, Paris. 1985.

ما يعنيه الحقيقة المصطنعة والواقع المصطنع، ومن هذه الزاوية لم تعد الحقيقة موجودة سلفاً، بل صارت من صميم الكائن البشري ومن صميم جزئياته وتفصيله، فلا حقيقة خارج ما يبدعه الإنسان وخارج طاقته العالية على التخيل، وصار السؤال يدور على الآليات الكفيلة بفرض هذه الحقيقة دون سواها من آلاف الحقائق بواسطة الآلة الإعلامية الضخمة وصناعة الأفلام وغيرها من الوسائل، ويكفي أن نذكر في هذا السياق الطريقة الماكرا التي مسحت بها الولايات المتحدة الأمريكية خسارتها التاريخية في الفيتنام، وكيفية تحويلها إلى انتصار عبر آلة هوليوود الضخمة.

لم تعد الحقيقة في قرارة بئر وأنما غدت داخل مصنع ضخّم لإنتاج ملايين الحقائق كل يوم. ولكن ما علاقة ذلك برواية كهذه لا يتخطى عدد صفحاتها التسعين صفحة؟

ها هنا تحديداً ينكشف مكر جورج أمادو، فهو يرفع في وجوهنا التّصوّر الأوّل الذي يجعله مجرّد باحث عن الحقيقة، ومحض متّسوّل لها، ويتبنّى خفيّة الثّاني بواسطة الحكّي والتّخيل، يُظهر شيئاً ويضمّر آخر، إنّه ينتصر للتّصوّر الثّاني عبر التّلاعب بالأوّل، ينتصر للجزئيات والتّفاصيل في اللحظة ذاتها التي يبدو لنا فيها حائراً أمام الحقائق الكلّية، وليست هناك حقيقة شغلت البشريّة منذ صرخة جلجامش إلى اليوم أكثر من حقيقة الموت، لذلك جعل أمادو شخصيّة المحوريّة شخصيّة موشومة بجملة من الآثار المتناقضة، فقد عاش «جواكيم سواريس دا كونيّا» إلى حدود عامه الخمسين ضمن الأطر المألوفة رجلاً مُطيعاً وربّ أسرة محترماً وأباً جيّداً وموظّفاً مثاليّاً، وفجأة يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، ويخلع عن ظهره عادات حياة بأكملها، ليتشرّد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدّعارة، مُقضياً السنوات العشر الأخيرة من حياته في قلب العالم السفليّ صعلوكاً

من أعتى صعايلك المدينة وقائداً فذاً للسكاري والمشردين يعرفه الجميع باسم «كينكاس هدير الماء» حتى غادره آخر نبض على فراش بائس في غرفة بائسة في «طوباو». ومن اللحظة التي يتم فيها الإعلان عن خبر وفاته، يبدأ الصراع بين العائلة من جهة وأصدقاء المرحوم من جهة ثانية لتثبيت هذه الحقيقة المتناقضة القائمة في وجه من وجوها، ويمكننا أن نقسم هذا الصراع إلى مستويين:

أ- مستوى الفعل: وهو هنا فعل رمزي الغاية منه تملك الموضوع واختزاله في جانب من جوانبه، وفي هذا السياق يمكن أن نجاري أمادو قليلاً في حكاية الحقيقة العارية في قرارة بئر، فهي عارية مثل كل فكرة مجردة ولكنها لا تكتسب معناها خارج فعل الإكساء الذي يخلعه عليها كل من يصل إليها أولاً أو ينفرد بها. وكفي أن نلقي نظرة على هذا المقطع من الرواية حتى نقف على هذه الفكرة بجلاء:

"لقد كان رجال وكالة الدفن يعرفون أسرار عملهم جيداً، فحقّقوا إنجازاً كبيراً حتى أنّ بائع التماثيل الدينية الذي ظهر ليرى كيف تسيّر الأمور لم يتمالك نفسه عن الهتاف: «هذا الميت شخص آخر». كان الميت ممسّط الشعر، حليق اللحية، يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض وربطة عنق جديدة وينتعل حذاءً لماعاً. "هذا هو حقاً «جواكيم سواريس دا كونيا» النائم في تابوت يليق بملك" هكذا علّقت «هندا» في قرارة نفسها (...) تخيلت أمها والسعادة تغمرها هناك في غياهب الكون البعيد حيث ترقد روحها لأن أمنيتها تحققت أخيراً، فلقد أعادت ابتئها ذلك المجنون إلى الرشد فرجع مرة أخرى «جواكيم سواريس دا كونيا» الرجل الطيب الخجول، والأب المثالي والزوج المطيع الذي يكفي أن ترفع صوتها أمامه ليخفي وجهه ويعود عاقلاً متصالحاً معها من جديد."

إنّ إكساء الميت ملابس جديدة وغسله وتمشيطة ليس فعلاً طقوسياً

فحسب بل فعل تملك يخلع عن الموضوع صفاته القديمة وملابسة الرثة واسمه القديم ويجعله متطابقا مع الصورة التي يُريدها الفاعل، ولكن فكرة الأثر تتسلف مفهوم المطابقة، ومهما اجتهد عمال وكالة الدفن في طمس آثار «كينكاس» القديمة حتى يعود «جواكيم» مرة ثانية، فإن أثرا بارزا ظل يذكر بالصعولك الساخر ويحول دون تطابق «جواكيم» مع صورته، وهو الأثر ذاته الذي تمكن من خلاله أصدقاء «كينكاس» من التعرف إليه حين ذهبوا ليلقوا عليه نظرة الوداع:

"في البداية شعر «الطائر الجميل» بأن في الأمر خدعة، فلا يمكن أن يكون هذا الميت «كينكاس» هدير الماء، ولكنه تعرّف إليه بصعوبة بعد ذلك من خلال ابتسامته الساخرة.. وأصيب الأصدقاء الأربعة بالذهول.. إذ لم يتوقعوا أبدا أن يروا «كينكاس» نظيفا وأنيقا في مظهره وثيابه كما يروونه الآن."

إن هذه الضحكة الساخرة من كل شيء، هي الأثر الذي بقي شاهدا على حضور «كينكاس» أما الملابس الأنيقة فأمرها يسير فبمجرد أن يختلي الأصدقاء بـ «الميت» حتى يخلعوا عنه هذه الملابس الجديدة ويكسوه ملابسه القديمة الرثة التي تفاقل عنها الماكر أمادو وتركها ملقاة في ركن الغرفة:

"لقد نزعوا عنه ثيابه قطعة بعد أخرى وتقاسموها، ثم جمع «الدهون» ملابس صديقه القديمة الملقاة في زاوية الغرفة وألبسوه إيّاها. وحينها فقط تمكنوا من التعرف إليه: أجل، هذا هو «كينكاس»." هكذا إذن تتغير الحقيقة حسب فعل الإكساء ذاته، وتصبح الهوية هويات والحقيقة حقائق والأيقونة مجرد سوميلاكري يحتفي باختلافه، ألم أقل لكم لا تصدّقوا السيّد أمادو حتى وإن أثار تعاطفكم وبدا لكم في صورة الضحية المرتبكة الخائفة وهي تنزل البئر حيث تسكن الحقيقة عارية من كل شيء.

ب- مستوى الحكيم: يقول بول ريكور في فصل شقيق موسوم بـ«الحياة بحثاً عن السرد» من كتابه «الوجود والزمان والسرد»: «إنّ الخيال، ولا سيّما الخيال السردّي، بُعدٌ لا يقبل الاختزال من أبعاد فهم الذات. وإذا صحّ أنّ الخيال لا يكتمل إلاّ بالحياة، وأنّ الحياة لا تُفهم إلاّ من خلال القصص التي تُروى عنها، إذن فالحياة «المُبتلاة بالعناء» بالمعنى الذي استعرناه من عبارة سقراط، هي حياة «تُروى»»⁽¹⁾

ما الذي يعنيه ريكور بقوله: «إنّ الحياة لا تُفهم إلاّ من خلال القصص التي تُروى عنها»؟ يعني أنّ الحياة خارج القصّ مجرد مادة خامّ، أو هي محض «حياة بيولوجيّة» على حدّ عبارة ريكور نفسه. ولكن هل القصّ مجرد أداة لفهم الحياة؟ وإذا كانت حكمة سقراط تقول: «إنّ الحياة بلا عناء لا تستحقّ أن تُعاش» فهل يمكن للحياة أن تُعاش خارج القصّ؟ للإجابة عن هذا السؤال لابدّ من توضيح الرابط المشترك بين الحياة والقصّ. فالسمة الغالبة على تعريف الحياة هي أنها صيرورة متبدّلة ومتغيّرة باستمرار، وكذلك القصّ، فهو التقاط لجملّة من العناصر وإدماج لها في صيرورة حيّة، وإذا كانت الحياة تمضي دون رجعة ولا تخلف لنا غير ركام من الآثار، فإنّ وظيفة القصّ هي نفخ الروح مجدّداً في تلك الآثار. هل يعني ذلك أنّ القصّ محاكاة لما يحدث على مسرح الحياة؟ إنّ تعريف القصّ بوصفه محاكاة يجردّه من كلّ طاقة تخيلية، وقد سبق لريكور أن نبّهنا إلى أنّ الحياة خارج الخيال مجرد «حياة بيولوجيّة»، لذلك فإنّ القصّ هو شرط الحياة وليس مجرد أداة لفهمها كما ذهب إلى ذلك ريكور، فالحياة تتحوّل وتمضي ولا يبقى منها غير القصّة، وما نراه الآن حياةً سيفقد بعد قليل قصّة حياة. فكلّ شيء منذور للتحوّل والنسيان ولا تصمد غير

(1) ديفيد وورد، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم: سميد الفانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1999، ص ص 52-53.

الحكاية، وهي إذ تظلّ بيننا لا تقدّم نفسها بوصفها إمكانا بل بوصفها حقيقة، ولعلّ ذلك ما حدا بشاعر معاصر مثل محمود درويش إلى اعتبار الصراع الحقيقيّ بين الفلسطينيين والكيان الصهيونيّ المحتلّ صراعا تخييليا بالأساس، واختزل أبعاد المعركة في سطرين شعريّين:

«فكُتِبْتُ: من يَكُتُبُ حكايتَهُ يَرِثُ (1)

أرض الكلام، ويملِكُ المعنى تماثلا»

لا وجود لحقيقة خارج الحكاية، تلك هي الحكمة التي نستشفّها من قول درويش، فمن يفرض حكايته يفرض حقيقته لأنّه يكفل لها البقاء، وذلك تحديدا ما تفضّل له أصدقاء «كينكاس» حين رفضوا حكاية موته الأولى التي تبنتها العائلة، وأعادوا كتابة حكاية موته من جديد، وبذلك يصبح الصراع بين رفاق المرحوم وعائلته صراعا داخل الحكاية وبواسطتها. إنّهُ صراع تخييلات fictions ينتصر فيه من تنتصر حكايته، وذلك جوهر هذه الرواية فـ «كينكاس» مات في الحكاية وعاد إلى الحياة بالحكاية ثم أسلمته الحكاية إلى الموت... قتلت حكاية بائع التماثيل الدينية ولم يكن حاضرا على موت الرجل بل مجرد ناقل للخبر، ومفاد الحكاية العثور عليه ميتا على سريرهِ الحقير في غرفته البائسة في «طوباوا»، ثمّ أحياء رفاقه الأربعة بحكاية: «أيّها الناس، لقد سرّت إشاعة مفادها أنّ «هدير الماء» لقي حتفه، فخيم الحزن ولبس الجميع ملابس الحداد (...) إنّهُ هنا، أيّها الناس.. اليوم عيد ميلاده، وها نحن نحتفل به. سنقيم وليمة في مركب صيد الكابتن «مانويل».. ثمّ مات مجدّدا بواسطة الحكاية: «في ذروة هيجان البحر، وفي قلب الخطر المُحدق بالمركب المنهار، تحت وميض البرق، شاهدوا جميعا «كينكاس» يلقي بنفسه في البحر وسمعوا كلماته

(1) محمود درويش، لماذا تركت الحصان وحيدا، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت-لندن، ط4.

الأخيرة: على كل فرد أن يميتي بدفن نفسه، فلا وجود لمستحيل».

ولعلّ الطريف في هذه الرواية أنّ جثمان البطل ووري داخل حكاية أولى قبل أن يموت في الحكاية الثانية ويلقي بنفسه إلى البحر في الحكاية الثالثة: «في الحقيقة، وبفضل مجهود جدير بأعظم آيات المديح من طرف كلّ الحاضرين، استطاعت العائلة أن تجمل روح المرحوم وكأنّها تشعّ منذ سنوات دون أن تشوبها شائبة واحدة حتّى لحظة الإعلان عن موته للجميع. وكان الحديث عنه يجري في صيغة الماضي البعيد فقط، إذا ما أجبروا تحت أيّ ظرف من الظروف على الاستشهاد به.» إنّ اختزال حياة البطل في جزء واحد منها هو محاولة لفرض الحقيقة من وجهة نظر العائلة وطمس السنوات العشر الأخيرة من حياة المتشردّ البائس، فلايّ الحقائق سينتصر أمادو في هذه الرواية وهو المصّرّف لأقدار كلّ شخصيّاتها من وراء حجاب؟

سينتصر جورج أمادو لحقيقة الناس البسطاء الذين يعيشون على الحكايات ويقتاتون منها، سينتصر للحقيقة الساكنة في التفاصيل، لا في الكليّات، للهامش لا للمتن، لـ «كينكاس هدير الماء» لـ «جواكيم سواريس دا كونيا» والأهمّ من ذلك كلّ أنّه سينتصر للطاقة الخلّاقة على التخيل، وذلك هو سرّ فتنة هذه الرواية، فلوّلا الاستيهامات والتخييلات لما تمكّن الكاتب من إنطاق بطله وتحريكه، فوضعه في البداية في غرفة واحدة مع ابنته «فتدا» وجها لوجه وجعله ينطلق بفعل الاستيهام: «إنّها ضحكة» كينكاس هدير الماء» المعهودة، وكلّ تفصيل فيها يحمل إهانة صريحة متلاشية في الصّمت الجنازّي الذي فرضه الموت. خيّل لـ «فتدا» أنّها تسمع عبارة «حيّة قدرة!» فخافت وبرقت عينها كما كان يحصل مع «أوتاسيليا»، حتّى شحب وجهها ومال لونه إلى البياض (...). ارتعدت «فتدا» على كرسيّها، ثمّ فركت عينيها بيديها، وتساءلت في قرارة نفسها إن كانت مجنونة حقّاً (...). فيما

اُتِّسعت ابتسامة «كينكاس» الماجنة، حالما رأى أخته وكأنه يسخر من بدانتها المضربة، فوضعت «هندا» إصبعيها في أذنيها، كي لا تسمع ما يمكن أن يتفوّه به من كلمات حقيرة لنعت «ماروكاس» ولكن دون جدوى فسرعان ما تهاوت إليها عبارته المألوفة في وصف أخته: «ها هو كيس الضراط الضخم!» ولئن كان تخييل الأقوال أقصى ما بلغه الطرف الأول، فإنه سيتخطى عند الطرف الثاني مستوى الأقوال إلى الأفعال ذاتها، ولنا أن نتأمل مشهد الميت وهو يجول مع رفاقه في شوارع مدينة «باهيا» ولكل حركة من حركاته تأويلها الخاص بفعل التخيل الذي قوّض كل مسافة بين الواقع والخيال، وفتح الكتابة على الكوميديا السوداء، فصارت الأقوال والأفعال والمواقف تطفح كلها بسخرية عالية من الموت: «كان «كينكاس» هدير الماء» في ذروة البهجة عابثا بكل شيء، فمرة يُحاول أن يعرف «العريف» و«المدهون» معا، ومرة يُخرج لسانه للمارة وكأنه يسخر من الناس جميعا، وأحيانا يميل برأسه على أحد الأبواب ليتجسس بخبث على عشيقين مُتلاشين في الحب، ومع كل خطوة كان يعلن عن رغبته في التمدد على الشارع...

إنها رواية تنتصر للتخيل والحكي معا، وليس أقدر على التخيل من بث الحياة في بطل ميت، ذلك هو الدرس الذي يقدمه لنا أمادو، فليست الحكاية إمكان حياة بل هي الحياة نفسها بعد أن غادرتنا الحياة. كل شيء يسيل ويتحول وكل شيء سيسقط في قبضة الغياب: الأنهار، الكائنات، الأشجار، الأكواخ والبنائات، والأحلام التي بذرناها هنا وهناك... وتبقى الحكاية حقيقة ساطعة وأثرا يدل على مرورنا من هذا الكوكب ذات يوم، فلنستمع إلى الحكاية إذن.

3/ربّما... من يدري...

«يُحكى أن فلاحا صينيا فقد حصانه الوحيد الذي كان يساعده في أعمال الحقل. فجاء إليه جيرانه في العشيّة يواسونه في مصيبتهم

قائلين: آية مصيبة حلت بك! فهزّ الفلاح رأسه قائلاً: ربّما، من يدري! في اليوم التالي رجع الحصان إلى صاحبه ومعه ستة جياذ برية أدخلها الفلاح إلى حظيرته. فجاء إليه الجيران يهنئونه قائلين: أيّ خير أصابك! فهزّ الفلاح رأسه قائلاً: ربّما، من يدري! في اليوم الثالث عمّد ابن الفلاح الوحيد إلى أحد الجياذ البرية فأسرجه عنوة واعتلى صهوته، ولكنّ الجواد الجموح رماه عن ظهره فوقع أرضاً وكسرت ساقه. فجاء الجيران إلى الفلاح يواسونه قائلين: آية مصيبة حلت بك. فهزّ الفلاح رأسه قائلاً: ربّما، من يدري! في اليوم الرابع جاء ضابط التجنيد في مهمّة من الحاكم لسوق شباب القرية إلى الجيش، فأخذ من وجددهم صالحين للخدمة العسكرية وعفّ عن ابن الفلاح بسبب عجزه. فجاء إليه الجيران يهنئونه قائلين: أيّ خير أصابك! فهزّ الفلاح رأسه قائلاً: ربّما، من يدري! (1)

3/ حاشية ثالثة:

لم نستعر هذه الحكاية لأحد تلامذة لاوتسو من كتاب التاو الصينيّ إلاّ للتوقّف عند رؤيتين تحكمان العالم منذ القديم، رؤية تحدّ التعامل مع الأشياء بمنطق الربح والخسارة، منطق الخير والشرّ، منطق النفع والنجاة، ورؤية ثانية لا ترى الوجود إلاّ في التغيّر والتقلّب، ومن هذه الزاوية فإنّ ما قد نراه نحن شرّاً لا يراه أصحاب هذه الرؤية كذلك لأنّهم لا يؤمنون بالأضداد فلا وجود عندهم لخير محض أو لشرّ محض ما دام كلّ شيء صيرورة. وقد وسم إيريك فروم أسلوب الحياة الذي تتحكّم فيه الرؤية الأولى بـ «أسلوب التملك» (2) ووسم الأسلوب الصادر

(1) لاوتسو، كتاب التاو، صياغة عربية للنصّ، تقديم وشرح وتعليق: فراس السّوّاح، دار علاء الدين، دمشق، 1998. ص 9.

(2) إيريك فروم، الإنسان بين الجوهري والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 140، أوت 1989. ص ص 29-41.

عن الرؤية الثانية بـ «أسلوب الكينونة». يحدّد الأوّل علاقة الإنسان بالوجود على أساس الاستحواذ ويجعل قيمته مرتبهة بما يملك، فكّما ملكتُ أكثر ارتفعت قيمتي بقيمة ما في يدي، أمّا الثاني فيعتبر الوجود فضاءً للتجربة الحرّة، فضاءً للمغامرة المتجدّدة ونحت الكيان. يتحرّك الأوّل ضمن الصورة النمطيّة المتعالية على طبيعة الذات ومجآله المظهر، في حين يضرب الثاني عرض الحائط بالمعارف والمألوف ولا يُصنّف لغير نداء الذات ومجآله الجوهر. والرواية كلّها مسرحيّة تبدو في الظاهر هزليّة مُضحكة، ولكنّها في العمق مسرحيّة وجوديّة ذهنيّة لا تتصارع على خشبتها غير الأفكار والتصورات والرؤى.

«كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت وعادات حياة بأكملها؟ أن يهجر معارفه القدامى ليتشرّد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، متهافّتا على المومسات، سائب اللّحية متّسّخا يعيش في حظيرة وينام على فراش بائس؟ إلى هذه اللّحظة لم تجد «قندا» جواباً واحداً يقنعها بذلك». ذلك هو السؤال الذي يطرحه علينا أمادو على لسان الابنة الحائرة. ولكن ما هي الرسالة التي يريد أن يقدّمها لنا؟ هل يقدّم البوهيميّة بديلاً من حياة الطمأنينة والرفاه التي ننعم بها؟ هل نتخلّى عن عائلتنا ونهيم مثل «كينكاس» على غير نهج؟

ستكون قراءتنا ساذجة إذا توقّفنا عند هذا المستوى من الفهم، ونكون بذلك قد أفرغنا هذا العمل الساحر من كلّ قيمة رمزيّة. لقد خلّف لنا أمادو وهويتلاعب بنا أكثر من مفتاح لفهم التحوّل الذي طرأ على شخصيّته المحوريّة والإجابة عن بقيّة الأسئلة، فلنبدأ من البداية، لنعدّ إلى ماضي الشخصيّة السحيق، ولنستمع إلى العمّة «ماروكاس» وهي توفّظ الجمر من رماده أثناء حوار العائلة في المطعم:

«يآ لـجواكيم» المسكين ... كان رجلاً طيّباً. ولم يُسئ إلى أحد. لقد

تملكه حبّ جارف لحياة التشرد هذه، وكأنّها كانت قدره منذ الصغر. ألا تذكر ذلك يا «إدواردو»؟ في إحدى المرات كان يريد أن يرحل مع جماعة السيرك؟ وحينها سلخ سلخا من شدة العقاب (...) وأملك يا صغيرتي، كانت متسلطة بعض الشيء. أذكر أنّه فرّ بعيدا ذات يوم، وحين عاد قال إنّّه يريد أن يكون حُرّا كمصفور. وفي الحقيقة كم كان ظريفا..

ما الذي يضيئه لنا كلام العمّة «ماروكاس»؟ إنّّه يزيح قناع الشخصية ويكشف عن جوهرها، عن طبيعتها النشيطة الحاملة، فالأمّ انتهت هذه الشخصية التوّاقة إلى الحركة والرحيل؟ الأمّ انتهى هذا العصفور المتخبط داخل القفص؟ مرّة أخرى يقدم لنا أمادو وصفا دقيقا وهو يعبر بنا من الجوهر إلى المظهر، من أعماق بطله المحوري إلى سطحة، من الذات بهواجسها وأحلامها إلى الصورة النمطيّة الثابتة: «لم تكن تريد أن تتذكّر سوى أعوام طفولتها وشبابها وفترة خطبتها وزواجها، والطفيف الوديع لـ«جواكيم سواريس دا كونيا»، شبه المختفي في كرسيّ من القماش غارقا في قراءة جريدته، لا يصحو من غيبوبته تلك إلّا حين يأتيه صوت «أوتاسيليا» بلهجة تأنيب: «جواكيم» فيتوقّف عن القراءة ويهبط واقفا... على هذه الصورة كانت تحبّ أن تتذكّره وتشعر نحوه بالحنان. هذا هو الأب الذي تشناق إليه»

هذا ما انتهت إليه الشخصية الحاملة: التضاؤل، الغياب والتلاشي والطاعة المطلقة. وذلك هو الحبّ وفق أسلوب التملك. يقول إيريك فروم: «تتضمّن طريقة الحبّ وفق أسلوب التملك السيطرة على من نحبّ، واحتوائه وسجنه. إنّها عمليّة خنق وإهلاك، وليست عطاء للحياة. إنّ ما يُسمّيه الناس حُبّا ليس في الغالب إلّا إفسادا وابتذالا للكلمة لإخفاء أنّ الحقيقة هي العكس. إنّ عدد الأمّهات والآباء الذين يحبّون أطفالهم لا يزال مسألة تحتاج إلى بحث. وقد كشف لويد دي

موز أن الألفي سنة التي انقضت من تاريخ الغرب تحفل بالقصص والتقارير عن أشكال القسوة والفضاضة التي ارتكبت في حق الأطفال، أشكال مفجعة من التعذيب البدني والنفسي، والإهمال والسادية والامتلاك بالمعنى المباشر.. إلى درجة تدعو إلى الاعتقاد بأن الأمهات والآباء الذين أحبوا أطفالهم حقيقة هم الاستثناء لا القاعدة»⁽¹⁾

أين ذهب ذلك الطفل الحالم؟ أين الطائر الجواب؟ يجيبنا أمادو عن هذا السؤال في مناسبتين بطريقة مكثفة موحية، الأولى حين يصور لنا الملابس التي اشترتها العائلة للميت:

«اشترؤا بذلة جديدة سوداء من محل قريب من هناك، (...) كما اشترؤا حذاءً أسود، وقميصاً أبيض، إضافة إلى ربطة عنق وجوربين. أما الملابس الداخلية فلا حاجة إليها.»

أما المناسبة الثانية فقد جاءت على لسان «العريف» أحد أصدقاء «كينكاس» الأربعة: «قد يكون ما فعلناه بك غير منطقي. لكن عائلتك مدرسة في البخل.. حتى أن صهرك سرق ثيابك الداخلية، هل تتصور ذلك؟»

أليس ما أهملت العائلة، في إطار سعيها المحموم إلى المحافظة على المظهر، هو الجوهر؟ ألم يُسرق من «كينكاس» جوهره؟ وهل الجوهر هنا غير تلك الثياب الداخلية المنسية خلف المظهر الزائف؟ لا يتردد أمادو عبر بطله الصعلوك في السخرية من كل المواضع والأعراف التي انصبَّ اهتمامها على تجريد الإنسان من ذاته وتقديمه قرباناً للشكل الخارجي المخادع والصورة النمطية الثابتة حيث تنهافت الأحلام والانفعالات والهواجس والرغبات في قبر الصورة المتعالية على حقيقة الإنسان وفي سجن المظهر، وليس أكثر تعبيراً عن ذلك من المشهد الساخر الذي التقطه لـ «قندا» أمام جثمان أبيها:

إيريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر. ص 55-56.

«بهذه الذكرى الأخيرة وحدها أحسّت «فندا» بالتأثر الشديد، حتى أنها همت بالبكاء ولكنّ الغرفة كانت خالية للأسف، أم.. لو انتابها هذا الإحساس في الجنازة لكانت قادرة على سفح بعض الدموع أمام الناس كما يليق بابنة صالحة.»

ما الذي تبقى للإنسان حين يتبرّع بماهيته من أجل المظهر؟ عليه أن يذبح أنينه على منحدرات الروح ويمنعه من الصعود حتى لا يشوّه مشهد الفرع الزائف في الخارج، وحين يكون السياق غير السياق، حين يفرض كل شيء اللوعة والحزن، حين يكون الباب مواربا والفضاء مفتوحا لفسحة آهة، فعليه أن ينصب لها المشائق طالما ارتبط وجودنا بعين الآخر التي تحدّد موقعنا داخل الصورة ومنزلتنا في الحياة. هكذا تصعد دمعة إلى عين «فندا» الواقفة قبالة جثمان أبيها، ولكنها سرعان ما تندرج إلى الداخل من جديد لأنّ الصورة تقتصر إلى المشاهدين كفريق يلعب على أرضه دون جمهور.

آية مفارقة يقحمنا في صلبها الكاتب إذ يقلب الأدوار فيجرّد كل من يقف متقمّعا في واجهة الصورة من إنسانيته، وبحركة واحدة من ريشة رسّام، حركة خفيفة مائلة تحت الأنف، يُلقي بابتسامة ساخرة على وجه الميت فيبيعث فيه الحياة؟ أليست هذه الرسالة التي أراد أمادو أن يبلغها لنا من وراء هذه الرواية الساخرة؟ ألا يقول لنا الكاتب كم عدد الأحياء منكم في هذه الحياة؟ كم منكم تبرّع بحلمه من أجل صورة زائفة؟ كم منكم أراد أن يقفز فرحا ولكنه سرعان ما انثنى حتى لا يخلّ بالأحياء العام؟ كم منكم أراد أن يتخذ طريقا في حياته وعدل عنه لأنّ الأب أو الخالة أو العمّة يريدونه محاميا لا طبيبا، طبيبا لا رسّاما، صحفيا لا راقصا.. لقد أصفى «كينكاس» إلى نداء الرحيل الساكن فيه وضرب عرض الحائط بالمظهر الزائف الذي شقّق الإنسانني هينا، فهل أصفينا نحن إلى ذواتنا؟ ذلك ما تقوله الرواية لا مجرد الصعلكة

أو المجون. في داخل كل منا ينام «كينكاس» ما مختلف عن الآخر مثل بصمة اليد ولكننا نقدّمه قربانا للمشارك والمتدوال والمكرور، ونطمس البصمة، نفمّسها في الجمر ونحن نئن من أجل الصورة. لذلك فهي رواية تنتصر للحياة مقابل الموت، تنتصر للذات إزاء القوالب الجاهزة التي تحاصرنا وتمنعها شكلها كل يوم، تنتصر للهامش الخلفي في وجه الواجهة الكاذبة، وتنتصر للإنسان هذا الكائن الهش وقد ظل كُرة تتقاذفها أرجل الأعراف والتقاليد والعائلة والمدرسة وموظفو الله وحُرّاس النوايا الذين يشاركونه علمه بما في الصدور ويقتلون باسمه ويفسلون الأذهان باسمه ويقطون طرق الرحمة باسمه... أصوات وأصوات وأصوات ما انفكت تجرّح أسمعنا حتى ظننّا أعمارنا المسفوحة عصير فراولة وصرنا قطعة من تلك الأصوات.

أما أن لكل واحد منا أن يُصمّ أذنيه قليلا ويصفي مرّة واحدة لما يريد؟ ذلك ما تريد هذه الرواية ببساطة أن تقوله لنا. ربّما من يدري؟

4/ اللوحة-القصيدة-الحكاية،

«عينان ذئبيتان بلا قرار. وجه أخضر ولحية كألسنة النار. كانت الأذن في اللوحة ناشزة لا حاجة بي إليها. أمسكت الريشة، أقصد موس الحلاقة وأزلتها.. يظهر أن الأمر قد اختلط عليّ، بين رأسي خارج اللوحة وداخلها... حسنا ماذا سأفعل بتلك الكتلة اللحمية؟ أرسلتها إلى المرأة التي لم تعرف قيمتي وظننت أنّي أحبّها.. لا بأس فلتجتمع الزوائد معا.. إليك أذني أيتها المرأة الثرثرة، تحدّثي إليها... الآن أستطيع أن أسمع وأرى بأصابعي»⁽¹⁾

4/ حاشية رابعة،

«لتجتمع الزوائد معا».. لم يكتب فان غوغ هذه الجملة بالقلم بل

(1) من رسالة فان غوغ الأخيرة إلى أخيه.

كتبها بـموس الحلاقة، كتبها من أجل المومس التي أحبها ولم تنظر إليه يوماً إلا بوصفه زبونا، بوصفه موضوعاً مؤقتاً للتملك لا بوصفه ذاتاً متوهجة حية، لذلك ترك لها أذنه العنصر المحبب إليها من جسده، العنصر الذي كانت تداعبه دائماً، أهداه إليها، وغادر الإطار مرتحلاً دون رجعة... فما الذي بقي من فان غوخ؟ بقيت اللوحة دليل كينونة وموضوع حياة.

يفادر «كينكاس»، ويترك الشموع والتابوت للعائلة، هو ليس في حاجة إليها، ليس في حاجة إلى قبر ثان بعد قبر العائلة.. لتجتمع الزوائد معاً، فما الذي بقي من «كينكاس»؟ بقيت القصيدة :

«سأدفن كما أشتهي

في الساعة التي أشتهي.

يمكنكم أن تحفظوا تابوتكم إذن

لمنة جديدة، وميت جديد.

أما أنا فلن أترك أحدا يحبسني

في قبر أرضي رذيل..»

وبقيت الحكاية تلقفها الأسماع وتتداولها الأفواه، بقي الأثر الذي تركه لنا من الحياة، ما تم انتشاله من نهر الزمان والقاؤه في نهر الحكاية المتدفق الجاري.

ذلك هو الدرس الأخير الذي تعلمه لنا هذه الرواية: من لم يخلف أثراً فقد كانت حياته على الماء ولا دليل يشير أبداً إلى أنه وضع قدمه يوماً على هذه الأرض.

5/أما التفاصيل....،

«كان راهب زن يتهياً للكلام في ساحة القرية الكبيرة. حرّر خطابه بمناية فائقة، وبينما كان يتأهب لقراءته هبت الريح فجأة وألقت

الأوراق على أغصان شجرة ليمون. باغته الأمر ولم يعد يعرف من أين يبدأ كلامه، فقال:

- هاكم يا أصدقائي باختصار ما وددت عرضه عليكم: عندما أجوع أكل، وحين أتعب أنام!

- ولكن أليس كل الناس يفعلون مثلك أيها المعلم؟
سأل واحد من الحشد.

- لا! ليس بالطريقة نفسها!

- لماذا أيها المعلم؟

- عندما يأكل الناس، يفكرون في كثير من الأشياء، وحين ينامون يفكرون بمشكلاتهم. لهذا لا يفعلون مثلي!

حينها، نزل المعلم وسَط الناس، وهو يردّد على مسامع المتسائلين:
«أما التفاصيل فتجدونها على أغصان شجرة الليمون»⁽¹⁾

5/ حاشية خامسة:

من سوء حظ المتكلم فإنّ الريح لم تهبّ لتأخذ هذه الأوراق، ولكنّه أراد أن يقول لكم: «هذه رواية ساحرة لا يمكن أن تستغرقها قراءة واحدة». أما التفاصيل فما تزال ساكنة هناك بين الأسطر، تحتاج إلى زيارة ثانية ليخرج كلّ واحد منكم بمشروع قراءة لهذا العمل. بإمكانكم الآن أن تعودوا إلى شجرة الليمون...

شوقي العنيزي

عرعر في 20/1/2015

(1) هنري برونل، أجمل حكايات الزمن يتبعها فنّ الهايكو، ترجمة محمّد الدنيا، مراجعة محمود رزوقي، سلسلة إبداعات عالمية، العدد 353، الكويت، أبريل 2005، ص 215.

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

ساعي بريد نيرودا

المؤلف: أنطونيو سكارميتا

البلد: الشيلي

ترجمة: صالح علماني

هي حقًا رواية بطعم الفاكهة، تبدوها فإذا أنت متورط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكাকা قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أية مفارقة أجمل من لعبة اللفة توحى وتسخر وتمكر؟ لغة هي النسيج واللباس والزائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيات والأشخاص فتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتشدّ قارئًا عاشقًا شبقًا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلف: قسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائزكم نقش

إن رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسوي، فعالم الرواية الافتراضي متاهة يتعذر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السردية حيث يختل توازن الأحداث ثم يعاد في النهاية؛ فإن نسق الاختلال يتعمق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبداً.

رواية تتجلى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقية والمآسي الشكسبيرية، ومجمل الأعمال التي انصب اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنسب إلى سلالة الآداب السردية الرفيعة الخالدة. ولعلّ القراء يشاطرونني الرأي القائل إن كثيراً من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلاً منها يدمج الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجة في أوروبا كلها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أما في شرقنا العربي فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنها أفضل كتاب صدر بعد جمهورية أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هز مشاعر جماهير العالم كله نجاح مؤلف هذا الكتاب» فائزكم نقش

انقطاعات الموت

المؤلف: خوزيه ساراماغو

البلد: البرتغال

ترجمة: صالح علماني

هذه الرواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفية حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفًا. تُبِير تلك المنطقة المخفية السوداء المُخفية، لا تواجهك عينا لعين، وما حاجتها إلى ذلك؟ بل تفتح عينيك لتري الفامض والمدنس والمرفوض، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الذي يمعن في التظاهر بنقاؤه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخرقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هارثا ضاحكا. يجعل ساراماغو الوحش الذي يقيم في أعماقك يظهر ويفتح جناحي شروره ويمارس في العلن وضاعته وخسسته. تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنى له العصف بكلّ إرث المواضعات الثقافية والمشارك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسير عمارته السردية بهذه السلاسة والحنق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزمن. إننا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟ بعد القراءة أنت لست الشخص الذي كنته، كنت تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنك مُستقلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النمرة التي علّموها النوم في أعماقك، تثبت لها في الظلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

نصر سامي

الحب في زمن الكوليرا

المؤلف: غابريال غارسيا ماركيز

البلد: كولومبيا

ترجمة: صالح علماني

هل أصفينا مرّة واحدة إلى صوت الحبّ المتغلغل في بلبال الواقع وفوضاه، هل حدّقنا في وجهه وهو يقاوم آخر العمر على حافة الهاوية؟ ذلك ما تتكفّل بمعالجته رواية «الحبّ في زمن الكوليرا»: أن نحبّ زمن الحرب والأوبئة، أن نجعل من وباء الكوليرا مبرراً لإنزال الركّاب من الباخرة حتّى يخلو المكان النّهريّ للعاشقين وهما في السبعين من عمرهما بعد أن عاشا ماضيهما منفصلين، ها هما يعودان بعد عقود ليستعيدا حبّهما المراهق يتحدّيان به الموت شبيقيّن، عاشقين، وكأنّهما في البرزخ .. قصّة حبّ طويلة بمئات الشخصيات تنتهي صفحاتها بعاشقين اثنين على متن باخرة في رحلة لا تنتهي ذهاباً وإياباً... قصّة وطن تمزّقه الحروب والأوبئة تتحوّل بقدرة قادر إلى حكاية حبّ أسطوري.. رواية تستند إلى التاريخ دون أن تقع في شراكه بل تحوّله إلى مادّة للتأمّل في الحبّ وفي الوجود الإنساني.. ها هنا بصير الحبّ ترياقاً لكلّ الآفات بدءاً بفعل الزمن وانتهاء بالأحداث والتاريخ.. رواية ظاهرها بطلاها فلورنتينو أريثا وهرمينيا داتا تجري في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين في أمريكا اللاتينية... لكنها رواية الإنسانيّة في كلّ الأزمان وفي كلّ الأمكنة..

ما الإنسان بلا حبّ؟ وهل عاشت الإنسانيّة زمناً بلا كوليرا؟؟؟ أبداً... فقط سنقول إنّ لكلّ زمان وباءه وأفته ولا دواء للإنسان غير المقاومة العاشقة...

ظافر ناجي

زوريا اليوناني

المؤلف: نيكوس كازنتزاكي

البلد: اليونان

ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحب رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا استطاردني حتى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»
أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

كتاب يوقظ الأسلاف جميعهم مرة واحدة، يأخذك بدهشة ورفق، ولكنه حين تتضح عيناك في الرؤية وقلبك في المحبة ويداك في المسك، يهزك هزا. تصبح ورقة صفراء أو زهرة لوز. أنت حر، المهم أنك لست الإنسان نفسه الذي كان قبل القراءة. تعي أن الرواية ليست فن حكي، ولا خرافة فقط، بل مادة تتفرق صافية من آلاف الكتب. تزهر يدك وأنت تحرك الأوراق وتقرأ، أنا أزهرت مرارا مثل شجرة برقوق جبلية، فيم العجب؟ نبتت على شفاهي لفة من صمت الغابات، وليل من كلمات الضوء. وشقيت وأنا أقرأ. في مرآت كثيرة نشر الطلاب حولي قماشاً وصعدوا فوق أغصاني لجمع الثمرات. نعم تحولت شجرة مرة وكثيرا من المرات غيما.. رأيت أسلوبا لم أعده إلا في أمهات النصوص المؤسسة الحارقة وفي ذلك النوع من السرد الشفوي الذي يقال عند الموت بحرارة اللوعة وألم الفقد. فهمت أن للرواية أنهارا خفية، وأن القلم آلة غير صالحة لكتابة نص عظيم.

نصر سامي

أخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

بهذا العمل الصادر في مطلع الألفية الثالثة، استردت الرواية الإيطالية حيوتها على يدي نيكولو أمانيتي،

رواية معاصرة، الشباب موضوعها وسؤالها ومنتهاها، تتكلم بلغتهم وتروي حياتهم وتعلي من أصواتهم المكتومة خلف جدار الصمت. إنها رواية جيل جديد بقي خارج اهتمام الأدب وصار وجوده مزعجا ولكنه حقيقة كالشمس. ماهي أحلام هذا الجيل؟ ماهي هواجسه وتطلعاته؟ ذلك ما تتكفل بمحاولة الإجابة عنه هذه الرواية، ولكنها محاولة لا تخمد الأسئلة بل تولدها وتطرحها عارية في وجه العالم بلا حذقة لغوية. تسمي الأشياء الجديدة بلغة جديدة، ولا تمرّ بل تبقى حاضرة فينا حتى تجبرنا مباشرة على النظر، مثلما تتخذ الفتاة الجميلة في عتبة الرواية القمر مرآة إلى أن يقول لها: «أنت جميلة... أنت جميلة...» كيف انتقل بنا أمانيتي من منطقة الخيال إلى صميم الواقع؟ كيف قوّض المسافة بينهما بكل براعة ويسر؟ وكيف استدرج شخصياته إلى النطق ولم ينطق على لسانها؟ ذلك أيضا ما تتكفل بإبرازه هذه الرواية بلغة متوهجة حية تمزج بين الكوميديا والتراجيديا، بين القسوة والبراءة في ثلاثة أيام هي كل عمر أحداث الرواية ولكنها تعصر حياة بأسرها، تأخذنا وتحملنا بعيدا.

لمع نجم الكاتب بعد هذه الرواية التي حصدت العديد من الجوائز، وتمت ترجمتها إلى 21 لغة وباعت ملايين النسخ.

الناشر

المرجومة

المؤلف: فريدون صاحبجام

البلد: إيران

ترجمة: وليد سليمان

«ثريا مانوتشهرى» ليست مجرد شخصية روائية من نسج الخيال، إنما امرأة من لحم ودم، كائن بشري جردته يد المجتمع من كل شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلا لأن زوجها أراد التخلص منها فاتهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائي والصحفي الإيراني «فرايدون صاحبجام» في وجه نظام الخميني الذي أصدر ضده حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمر له، ولكن الكاتب المقيم في باريس تمكن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصلي لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضد «ثريا مانوتشهرى» المتهمة ظلما بخيانة زوجها. وهكذا يتحول الكاتب شاهد عيان على جريمة بشعة في حق امرأة انتهكت إنسانيتها، ولفّها الصمت، امرأة تأمر عليها مجتمع بأسره، حتى والدّها الذي أجبر على إلقاء الحجر الأول في عملية الرجم.

لقد تم تحويل هذه الرواية التي ترجمت إلى 30 لغة إلى شريط سينمائي ناجح بعنوان «رجم ثريا» وأخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

تموت المرأة لكن المجتمع لا يتوقف عن رجم نفسه، رجم هويته وتركيبته ومعناه... هذه رواية كبيرة، وعمل عظيم، وكتابة يُستحى منها..

عبد الله ثابت

قلب كلب

المؤلف: ميخائيل بولغاكوف

البلد: روسيا

ترجمة: أشرف القرقي

يقدم ميخائيل بولغاكوف رسماً استباقياً لظلال الكارثة قبل اكتمالها، تلك التي ستلف الشعب الروسي لأكثر من خمسين سنة. وبقدرة هائلة على اختزال المتعدد والمتشعب في شبكة رمزية بسيطة وناهضة، يتمكن هذا الكاتب الاستثنائي من ضيافة الشعب الروسي برمته داخل جسم «كلب صالح»، يتعرض لمسخ قسري عبر إقحام الأعضاء الأكثر حساسية لإنسان ميت في جسده... كل ذلك في لغة بسيطة نافذة، تجعل من السخرية الحصن الأخير الذي تنطلق منه كل حركة مقاومة واستعادة للإنساني العميق من براثن اليوتوبيا الشيوعية الفجة التي قضت على الإنساني تحت شعار خلاصه.

هذه الرواية صوت مضاد مكتوم لم نستمع إليه لأنه جعل هاجسه فضح الانتهازيين بعد الثورة بشكل يجمع بين المجائبية والواقعية الفجة، محبوبتين في نسج السخرية اللاذعة. نشرت بعض فصولها على حلقات في الجريدة، ولكن ستالين سرعان ما تقطن إلى خطورتها فانتفض إزاءها وجها لوجه، يُصادرها ويجوِّع صاحبها لتبقى كاللغم الممنوع الاقتراب منه أو مجرد الإشارة إليه طوال 62 سنة، بدءاً من سنة 1925 إلى سنة 1987 تاريخ صدورها لأول مرة، أي بعد وفاة صاحبها بـ 33 سنة. ولكن نشرها كان كافياً لولوجها عالم الروائع الأدبية التي لا تتسى وانتشال صاحبها من سطوة النسيان لتضعه على مصاف كبار الكتاب في العالم.

إنها رواية تشييع الإنسان الجديد الذي بشرت به الثورة الشيوعية إلى مثواه الأخير.

أشرف القرقي

عرس الشاعر

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الأسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كله في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيماء» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرة حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيد، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكل ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصة حب أسطورية قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكية وتهكمية إلى أوروبا ما قبل الحرب العالمية الأولى، ولكنها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين. تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبية في العالم.

الناشر

الحب والظلال

المؤلف: إيزابيل الليندي

البلد: الشيلي

ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كل ما يمكنك فعله هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مرّ في «الحب والظلال». كل لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبدية تتسع دوائرها فتتمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلاً ليكون خارج الظلال، محافظاً على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحياة في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

أنور اليزيدي

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلاهما الآخر بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيراً. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل الليندي

حديقة الصخور

المؤلف: نيكوس كازنتزاكي

البلد: اليونان

ترجمة: أسامة إسبر

من الصعب أن تحدّد من هو كازنتزاكي في رواية «حديقة الصخور».. فهو هنا كل وجوهه المتعدّدة وما أكثرها.. الرّوائي يكتب حكايته، والشاعر ينظم قصيدته، والمسافر يدوّن مذكرات رحلاته، والفيلسوف يتأمّل العالم وذاته، والسياسيّ يلاحظ انهيار العالم وأكاذيب الإيديولوجيا.. لقد تأثّر كازنتزاكي بنيتشة وبرغسون وماركس. فكره مزيج من كلّ تلك الفلسفات وفي روحه تمزّق متجانس بين السماويّ والوضعيّ وخارجهما، بين حكمة الشرق الأقصى مختزلة في بوذا والكثير من مسيحيّة الغرب وعلمانيّة الشّيوغيين في العالم.. لا يقلقه تناقضه، بل يرى في ذلك عمق الوجود الإنسانيّ وخلاصة مأساته وخلاصه.. على امتداد صفحات الرّواية تطالعنا المدن والوجوه في رحلة لا تنتهي بين عشرات الأماكن ومئات البشر.. لا شيء من ذلك يهمّ فعلاً بقدر ما تهّم التجربة من ورائها والحكمة من وجودها..

ظافر ناجي

يصدر قريبا

أيام قوس قزح

المؤلف: أنطونيو سكارميتا

البلد: الشيلي

ترجمة: صالح علماني

ورددت الجبال الصدى

المؤلف: خالد حسيني

البلد: أفغانستان

ترجمة: منير العليمي

قلب كلب

المؤلف: ميخائيل بولغاكوف

البلد: روسيا

ترجمة: أشرف القرقي

رصيف الأزهار ما عاد يجيب

المؤلف: مالك حداد

البلد: الجزائر

ترجمة: عبير مكّي

لما كبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions



جورج المارو

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخاً، ملتجئاً، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .
خير موته مثل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا، المعروف عند رفاقه الصعاليك بـ «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، وإنما، لتصحيح خطأ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا، الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقي حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفة بائسة. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

ترجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقاد على أنها تمثل رغم قصرها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر



97899381833225

مسكن